مازن المبارك
دكتوراه في الآداب من جامعة القاهرة

نحو وعي لغوي

(لايبلغ الوعي السياسي ولا الوعي القومي
مداهما مالم يقترنا بالوعي اللغوي السليم)

مؤسسة الرسالة



مؤسسة الرسالة - بيروت - شارع سورية - بناية صمدي وصالحة
هاتف ٢٩٥٥٠١-٢٤١٦٩٢ ص ب ١١٧٤٦٠ برقياً: بيوشران


نحو وعي لغوي

بسم الله الرحمن الرحيم

الاهداء

★ إلى الذين يعلّمون العربيّة على أنها رسالة ، وليست مهنة للكسب ولا حرفة للارتزاق .

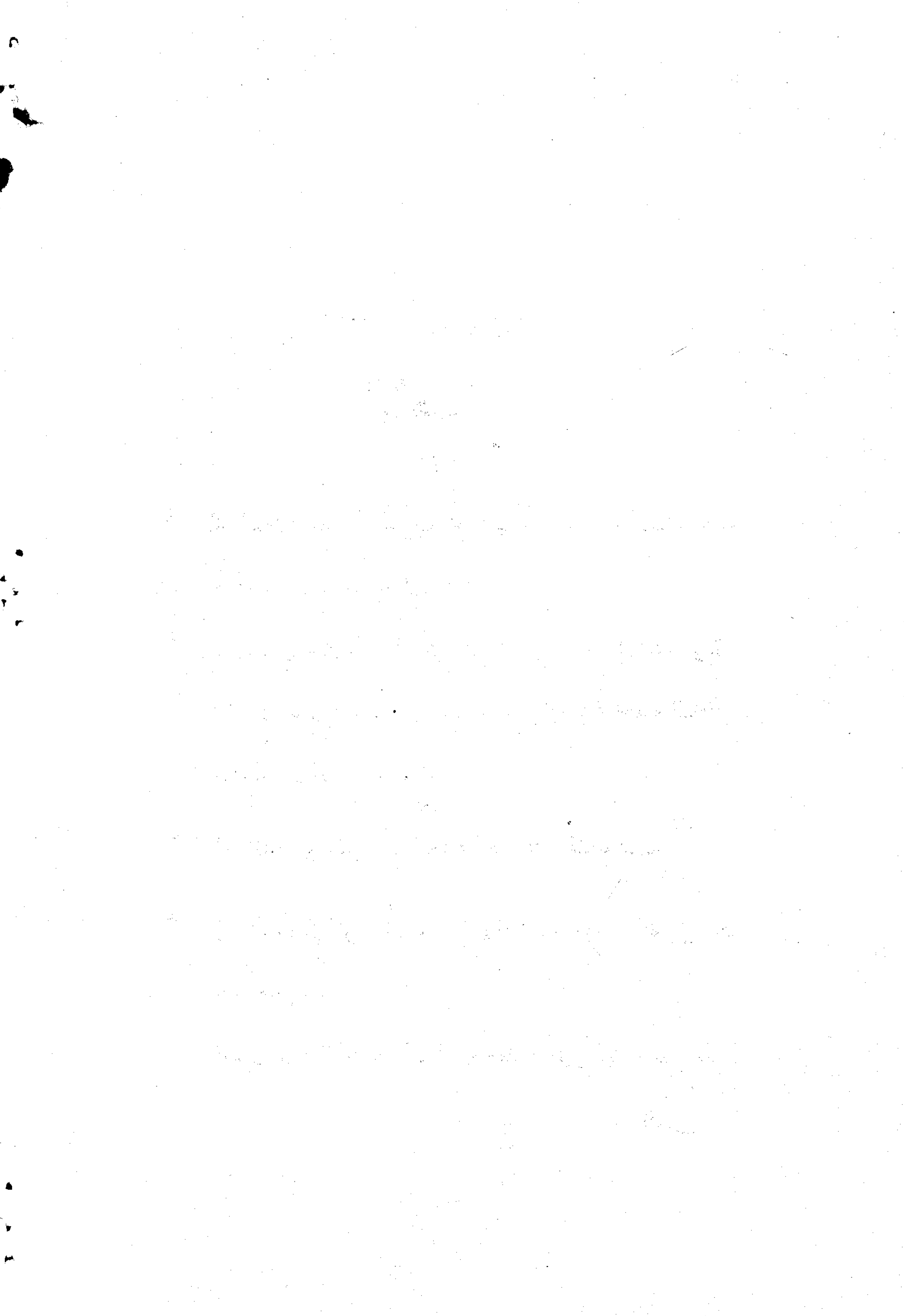
★ إلى الذين استحبّوا الوعي على العمى ، فلم يخدعهم زيف الشعار عن صدق الواقع ، ولم تزحزحهم جلبة الباطل عن كلمة الحق .

★ إلى الذين يؤمنون أن الغلبة للحق فلا يقنطون .

★ إلى الذين يؤمنون أن وعي الذات هو أول الطريق نحو فجر جديد .

أسوق هذه الأبحاث لتكون خطوة أولى نحو وعي سليم .

مازن



المقدّمة

هذه صفحات في اللغة العربية، توضّح بعض خصائصها ، وتتحدث عن بعض مزاياها .

واللغة من الأمة أساس وحدتها ، ومرآة حضارتها ، فكيف إذا كانت – إلى ذلك – لغة قرآنها الذي تبوّأ الذروة فكان مظهر إعجاز لغتها القومية، ومستودَع عقيدتها الدينية ، نعم لقد نزل القرآن ، هذا الدستور الالهي الخالد ، بلغة العرب فأعطاها مثلاً في الصياغة اللغوية كانت به بين اللغات مَثَلاً فريداً في الإعجاز اللغوي . وفي ضوء هذه الحقيقة نحكم للغة العربية بمغايرتها لسائر اللغات .

نحن لا ننكر أنه قد تكون لقوم من الأقوام لغة حية راقية، ثم أن يكون لهم كتابهم الديني، ولكننا لا نرى بين لغة قوم

من الأقوام وبين كتابهم الديني هـذه الرابطة المتينة التي نراها بين العربية والقرآن ، إنها رابطة فريدة المثال، لا تعدلها في هذا الباب رابطة ، وإن القرآن بالنسبة إلى العرب جميعاً كتاب لبست فيه لغتهم ثوب الإعجاز ، وهو كتاب يشدّ إلى لغتهم مئـات الملايين من أجناس وأقوام يقدّسون لغة العرب، ويفخرون بأن يكون لهم منها نصيب .

على أن هذه المقدمة ليست موضع البحث عن صلة العربية بالقرآن فإن لذلك موضعاً آخر من هذا الكتاب ، لكننا أردنا من ذلك أن نبين أن اللغة العربية ـ من هـــذه الناحية ـ ليست كسائر اللغات الأخرى،وأن السهم الذي يُسدَّد إلى العربيـة لا يسدَّد إلى حروف وألفاظ، ولا إلى صيغ وتراكيب، ولكنه سهم يسدد إلى أُمتنا في الصميم . إن اللغـــة العربية مظهر رائع لامتزاج الشكل العربي بالمضمون الاسلامي ، ومن هنا كان أصحاب النفوس الحاقدة والغايات الفاسدة مـن استعمارية وغيرها وراء كل دعوة إلى الفصل بين هاتين القوّتين العظيمتين . كانوا دوماً وراء الطعن في إحداهما

لأنه طعن مزدوج لا يصيب واحدة منها إلا أصابها جميعاً ·

ولقد اتخذت محاولات الطعن في العربية أو في الاسلام - والطعن فيهما سواء - أشكالاً ومظاهر شتَّى ؛ فهي تلبس تارة ثوب الطعن في الأدب القديم وصحّته ، وتظهر تارة بمظهر تشجيع اللهجات المحلية لتفتيت اللغة الواحدة وتمزيق الناطقين بها ، وتارة تلبس ثوب الثورة على القديم والدعوة الى التجديد ·· فمن منادٍ بالتمرّد على الأسلوب العربي القديم ، وهو لا يتمرّد في حقيقته على قِدَم الأسلوب وإنما يتمرّد على صحة اللغة وسلامتها ، ومن قائل بضيق العربية وقصر باعها عن مواكبة الحضارة ، ومن ناعق بهجر الحرف العربي الى الحرف اللاتيني ، ومن داع الى تغيير القواعد . . ومن داع للاعتراف بالعاميّة وما فيها من أدب وفنّ . !

وأنت لو تأمّلت هذه الدعوات أو معظمها لوجدت أنها لا تمسّ العربية إلا في ظاهر من القول ، وأما الغاية التي وراء القول فهي النيل من العربِ ، أصحابِ اللغة ، والقرآنِ ، كتابِها المعجز ، عرف ذلكِ الداعون إلى تلك الدعوات أَم جهلوه .

وأنت لو حاولت الربط بين ما وصل إليه الاستعمار من ضروب الحيلة وفنون الكيد، وبين ما ينادي به معظم أصحاب تلك الدعوات لا نجلت لك الحقيقة واتضح الغرض .

إن الاستعمار بعد أن يئس من أن تكون له ركائز في أرضنا، فكّر وقدّر، وتقدّم وتطوّر، وقنع أن تكون له ركائز في أفكارنا ونفوسنا . لقد وجد ذلك أسهل عليه وأخفى علينا ، فاختفى بمظهره العسكري الساذج المكشوف ،ثم بمظهره الاستشاري الواضح ليظهر بثوب لا ننكره ولسان لا نتأذّى بظاهره ، إن الاستعمار اليوم يعيش في عالمنا العربي المستقلّ بثوب عربيّ ،ولسان عربيّ يُنطق به نفراً منا ، وما منّا ، إلا ألسنتهم ، وأما قلوبهم فمصنوعة على عينيه ، ومُنشّأة على يديه . وإلا فبماذا تفسّر هذه السهام المسمومة تسدّد بأيدٍ عربيــــة إلى قلب العروبة والإسلام باسم الإصلاح اللغوي ؟! ولا يخدعنّكَ بعد ذلك عنوان برّاق ، أو حديث طليّ لا يمسّ ظاهره عقيدة الأمة ولا يتعرّض لهـــا ، ولا يمسّ قوميّة الأمة ولا يؤذيها ، بل قد يتخذ في بعض الأحيان موقف المدافع

عنها ، إنه كلام في ظاهره الحرص على الإصلاح ومن باطنه الحقد المتسعّر والبغض الدفين .

ولست أدّعي أن هذا الكتاب سيعرض لكل ما يتصل بموضوعه من دعوات، ولا أدعي أنني قادر على استيعابها جميعاً والردّ عليها، وأنىّ لي ذلك وهي قد كثرت وتنوّعت؟ وإن كانت ريحها تدل على وحدة المصدر، وكيف أجمع بينها في كتاب واحد، وهي قد دخلت من أبواب كثيرة متفرقة ؟ أفأردّ على الذي لا يرى سبباً لهزيمة العرب إلا لغتهم الفصحى ، أو يراها من أسباب هزيمتهم ؟ أفرأيته وقد هجرها حتى قدّم باللغة العامية التي دعا إليها ديواناً من الشعر؟ أرأيته حين طغى عليه الغيّ وركبه الضلال فكتب بلغة اخترعها فكانت خير مرآة لعقله وفكره ونفسه ، بل خير دليل على عاطفته نحو لغة قومه !! لقد كانت كتابته في المجتمع العربي غريبة تحكي غربة صاحبها بين بني قومه .

والذي يرى لكل عصر لغة ؟ أسمعته يقول إن للفصحى عصراً مضى وانقضى !

وذاك الذي يلبس ثياب البطل ويقف مدافعاً عن الفصحى ذائداً عن حماها ، أرأيته في موقفه ذاك يفتح بابهـــا واسعاً لكل دخيل . .

والذي ينظر إلى تخلّف العرب العلمي في عصر الذرّة ، أسمعته وهو يعلن أنـه لا يرى لهذا سبباً غير تمسّك العرب بلغتهم في مراحـل التعليم عامة والتعليم العالي منها خاصة !

بل أرأيت إلى الذي ضاقت عليه أدواء العرب بمـا رحبت فلم يجد أخطر من بقـاء الحروف العربية في أيدي أصحابها ، فدعا إلى نبذها وإحلال الحروف اللاتينية محلّها .

ودعاة اللهجات المحليّة ؟ وتشجيع دراســة تلك اللهجات باسم البحث العلمي في علم اللغة وفقهها ؟ ودراسة العامية والدعوة إليها ؟ أرأيت إلى دعوتهم تلك المفرّقة الممزّقة بطريقة علمية في عصر تبحث فيه الأمة عن وحدتها وترفع فيه شعار قوميّتها ؟!

والمحدَثون الذين غزَوا باب المعجمية العربية وما هم منها في العير ولا النفير ، فأخطؤوا حتى في اسم معجمهم ، أرأيت الى المسخ المشوّه

الذي وضعوه ؟؟ أرأيت إلى ما فيه من نقص في المادة، وزيادة فيما ليس من العربية في شيء ؟؟ أرأيت إلى ما فيه من دخيل وأعجمي وعاميّ ؟ وإلى ما فيـــه من خطأ وتحريف ؟؟ وملحقه الخاص بالأعلام أرأيت ما فيه من خلط وجهل ودسّ وافتراء ؟!

وبعد، فدع عنك العدّ والتعداد، فلقد دوّت أبواق الباطل في كل مكان، وتداعى أنصار تلك الدعوات يريد كل منهم أن يكون بين العرب أكثر ممـــا كان أتاتورك بين الأتراك، إن أتاتورك «تركّ» شعبه حين أجبره على ترك لغة القرآن، وأما هؤلاء المغفّلون فلست أدرى بمن يريدون أن يُلحقوا العرب حين يخرجونهم من عروبتهم بتزيينهم لهم التخلّي عن لغة قومهم وقرآنهم.

ولا عليك أيها العربي الحريص على لغة قومك وقرآنك من هؤلاء، فلطالما رأينا مَن غيّر ثوبه، وبدّل من شكله، واستعجم بلسانه ليثبت أنه من شعب آخر غير شعبه، أو أنه يمتّ الى أمةٍ غير أمته، وما هو في حقيقة أمره إلا دَعيّ ترك أصله ولم يُلحقه أحد بنسب جديد..

لا عليك أيها العربي ممن يريد أن يدلّ على أنه منبتّ لا أصل له، مقطوع لا نسب يؤويه ، جديدٌ لا أصالة ولا عراقة ولا تراث . وحسبك أن تقول كلمة الحق التي يجب أن تشق طريقها في زحمة الظلام وكثافة الضلال. ولا يخدعنك استطالة هذه الدعوات، ولا يغرّنك تقلّب أصحابها في البلاد ، متاع قليل ، وعمر قصير ، ثم لا يلبث إلا الحق ، والله غالب على أمره.

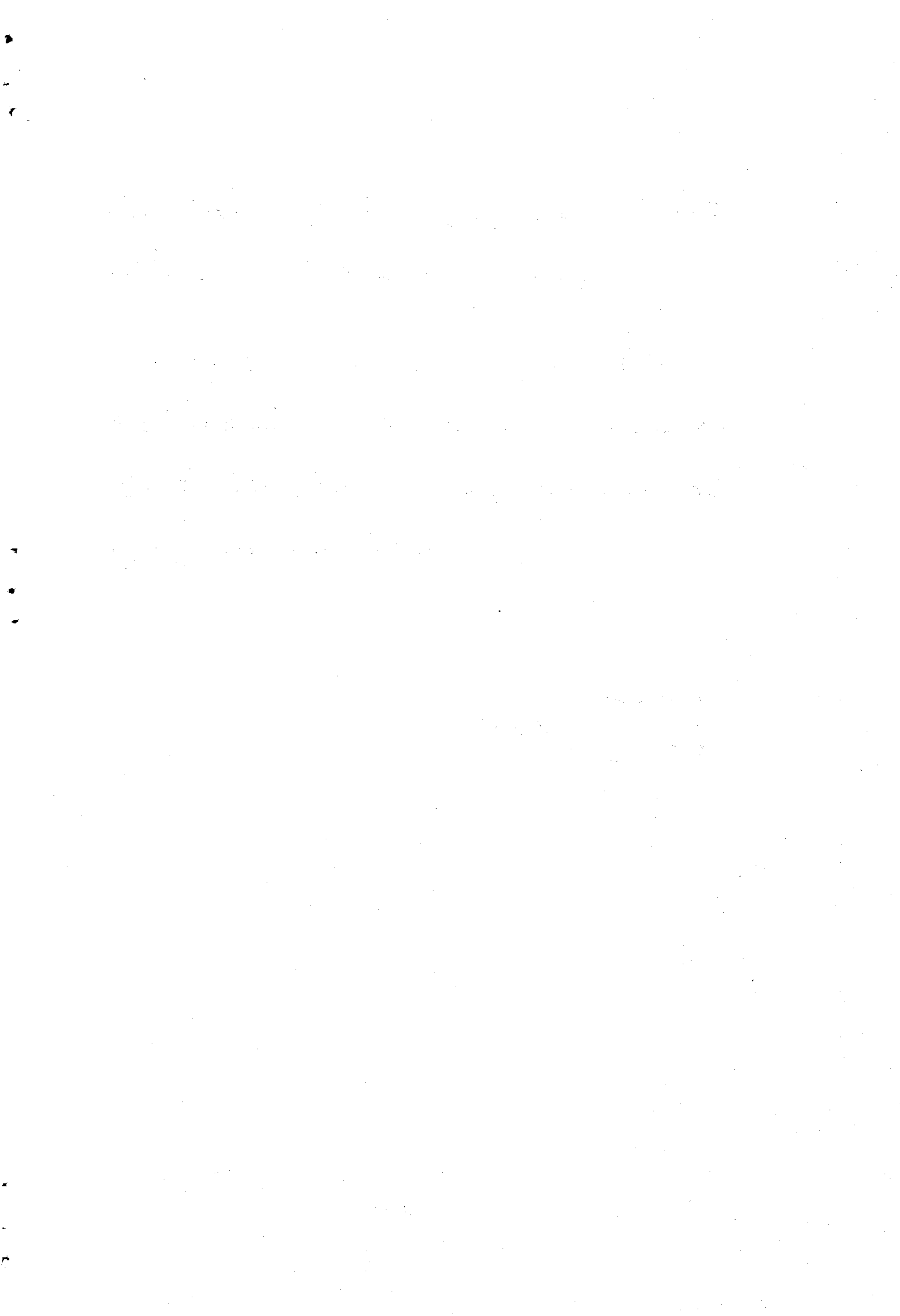
وإن العقلاء والمفكرين وحملة الأقلام يجب أن يؤدوا لهذه الأمة حقها من حصيلة عقولهم وأفكارهم وأقلامهم ، إن لكل شيء زكاة، وزكاة العقل والفكر والقلم أن يقول كلمة الحق ، وإن عليه أن يظل مرابطاً يتصدّى للباطل مهما يبلغ عتوّه، رافعاً راية الحق مهما يتنكر له الناس . إننا نرى الغزو يجتاحنا من كل مكان ؛ فلقد غُزينا في عقر دارنا ، وغزينا في أفكارنا ، وغزينا في قلوبنا ، فمتى يكون الجهاد فرضاً إن لم يكن الآن ؟ ؟ وإذا جاهد من يستطيع الجهاد بالنار والبارود ، أو بالمال والعتاد ، أفلا أقل من أن يجاهد صاحب الفكر والقلم بكلمة حق يقولها ؟ وإن نور

الكلمة المخلصة ، وضياء الحق الذي تحمل وتناصر ، ليس بأضأل ولا أخفت من وهج الدماء المتدفقة من جروح الشهداء .

إن من مبادىء وعي الأمة لذاتها أن تعي لغتها ، فكيف إذا كانت الأمة كأمتنا العربية ولغتها كلغتنا العربية ؟ كيف إذا كان بين المتكلم ولغته من الصلات ما بين العربي واللغة العربية من صلة هي معنىً من معاني وجوده وكيانه .

مازن المبارك

دمشق في رجب ١٣٩٠
أيلول ١٩٧٠



أقوال

فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟؟

★ « إنّا أَنزلناه قرآناً عربياً لعلّكم تعقلون . »

قرآن كريم
يوسف ١٢ : ٢

★ « وكذلك أنزلناه حُكماً عربياً . »

قرآن كريم
الرعد ١٣ : ٣٧

★ « لسانُ الذي يُلحدون إليه أعجميّ وهذا لسان عربيّ مبين »

قرآن كريم
النحل ١٦ : ١٠٣

★ « وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً . »

قرآن كريم
طه ٢٠ : ١١٣

★ « وإنه لتنزيل ربِّ العالمين . نزل به الروح الأمين .
على قلبك لتكون من المنذِرين . بلسانٍ عربيّ مبين . »

قرآن كريم
الشعراء ٢٦ : ١٩٢ – ١٩٥

★ « تنزيلٌ من الرحمن الرحيم . كتابٌ فُصِّلت آياته قرآناً
عربياً لقوم يعلمون . »

قرآن كريم
فصلت ٤١ : ٢ – ٣

★ « لأن أقرأ فأسقِط أحبُّ إليّ من أن أقرأ فألحن . »

ابو بكر الصديق

★ « تعلَّموا العربيّة فإنها من دينكم . »

عمر بن الخطاب

★ « والله لأن أهجَى بالعربية أحبُّ إليّ من أن أُمدح بالفارسية . »

البيروني (١)

★ « اللهَ أحمد على أن جعلني من علماء العربية ، وجبلني على الغضب للعرب والعصبيّة ، وأبى لي أن أنفرد من صميم أنصارهم وأمتاز ، وأنضوي إلى لفيف الشعوبية وأنحاز . »

الزمخشري (٢)

★ « إن اللغة العربية من الدين . ومعرفتها فرض واجب؛ فإن فهم الكتاب والسنة فرض ، ولا يفهم إلا باللغة العربية ، وما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب . »

ابن تيمية

---

(١) هو محمد بن احمد ابو الريحان الخوارزمي الفيلسوف الرياضي صاحب المؤلفات المشهورة في الرياضيات والفلك والتاريخ . توفي سنة ٤٤٠ هـ .

(٢) هو محمود بن عمر ابو القاسم الزمخشري ، صاحب تفسير «الكشاف» وكتاب (المفصّل) في النحو ، توفى سنة ٥٣٨ هـ .

★ « اللغة تجعل من الأمة الناطقة بها كلاً متراصاً خاضعاً لقوانين . إنها الرابطة الوحيدة الحقيقية بين عالم الأجسام وعالم الأذهان . »

فخته

★ إن اللغة القومية وطن روحي يُؤوي من حُرم وطنه على الأرض . »

فوسلر

★ « إنما اللغة مظهر من مظاهر التاريخ ، والتاريخ صفة الأمة. كيفما قلّبت أمر اللغة ـ من حيث اتصالها بتاريخ الأمة واتصال الأمة بها ـ وجدتها الصفة الثابتة التي لا تزول إلا بزوال الجنسية وانسلاخ الأمة من تاريخها . »

مصطفى صادق الرافعي

★ « إنما القرآن جنسية لغوية تجمع أطراف النسبة إلى العربية، فلا يزال أهله مستعربين بـــه، متميّزين بهذه الجنسية حقيقة أو حكماً . »

مصطفى صادق الرافعي

★ « إن المثقفين العرب الذين لم يتقنوا معرفة لغتهم ليسوا ناقصي الثقافـــة فحسب ، بل في رجولتهم نقص كبير ومهين أيضاً . »

طه حسين

★ « أيها المواطنون :

ليدفع كلاًّ منكم تسابقٌ مقدس للقضاء على اللهجات في جميع أقطار فرنسا ، لأن تلك اللهجات رواسب من بقايا عهود الإقطاع والاستعباد . »

بيان من مجلس الثورة الفرنسية .

★ « إن مبدأ المساواة الذي أقرّته الثورة يقضي بفتح أبواب التوظف أمام جميع المواطنين ، ولكن تسليم زمام الإدارة إلى أشخاص لايحسنون اللغة القومية يؤدي إلى محاذير كبيرة ، وأما ترك هؤلاء خارج ميادين الحكم والإدارة فيخالف مبدأ المساواة ، فيترتب على الثورة - والحالة هذه - أن تعالج هذه المشكلة معالجة جدية ؛ وذلك بمحاربة اللهجات المحلية ، ونشر اللغة الافرنسية الفصيحة بين جميع المواطنين »

الراهب غريغوار

★ « الوحدة اللغوية تمهيد للوحدة السياسية، تدفع إليها ثم تحافظ عليها . »

★ « لا يبلغ الوعي السياسي والقومي عند الأمة مداه الأبعد ما لم يقترن بوعي لغوي سليم . »

★ « الدعوة الى العامية دعوة جاهل أو شعوبي .

وهي لا تعني - اجتماعياً - غيرَ التقاطع والانزواء وقوقعة المجتمعات الضيّقة .

ولا تعني - قومياً وسياسياً - غيرَ تفكيك وحدة الأمة وتمزيق شعوبها ، والإكثار من كياناتها المتجزئة

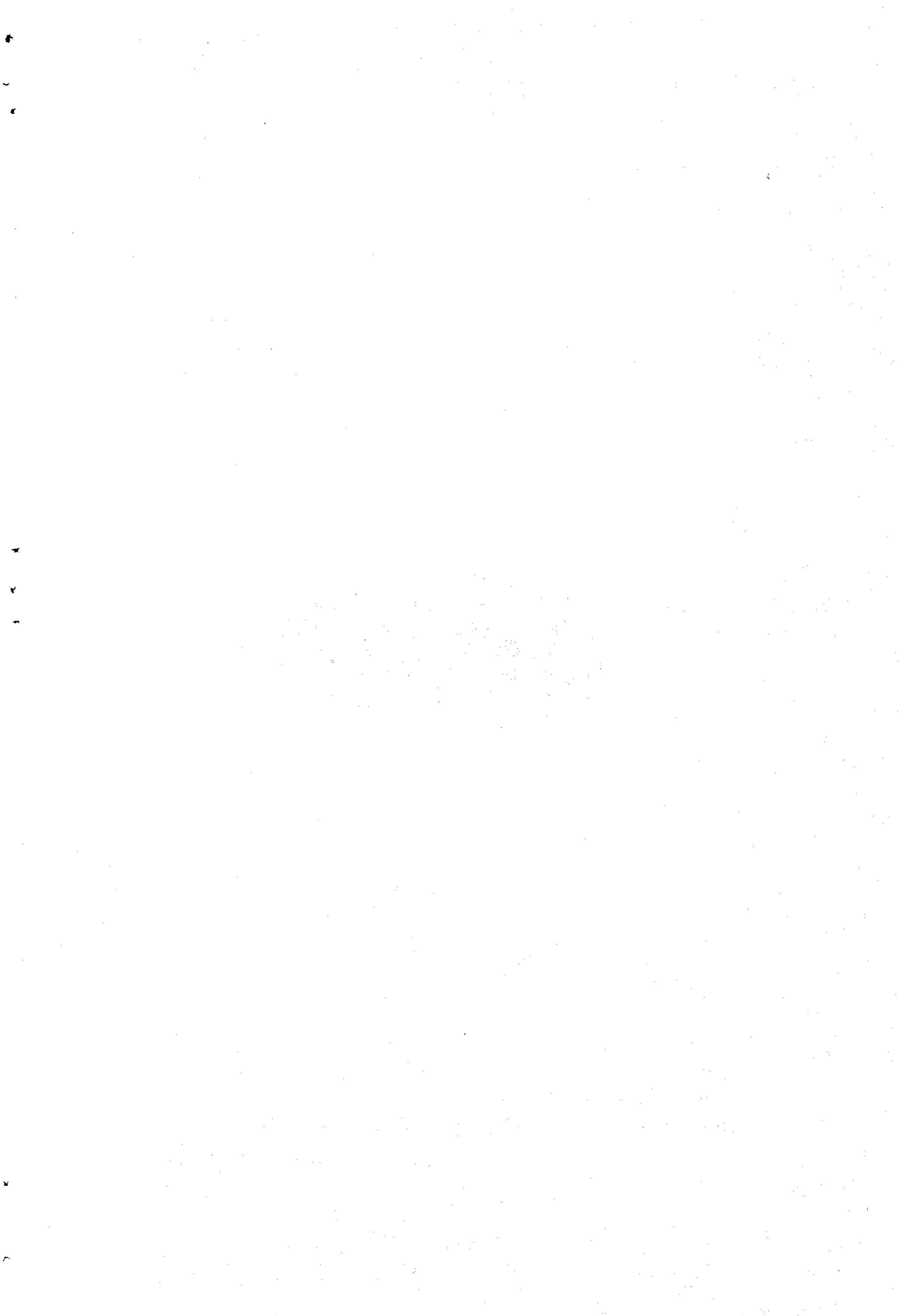
ولا تعني - اسلامياً - غيرَ إنشاء جيل بلا قرآن ! »

★ « ليست حماية الأمة بحماية أرضها فقط ، ولكنها - قبل ذلك - بحماية لغتها من الضعف والاضمحلال والضياع . »

مازن المبارك



(١) محاضرة ألقاها المؤلف في المركز الثقافي بدير الزور في ٢٥/٤/١٩٦٣ بدعوة من وزارة الثقافة والارشاد القومي .



حين يحدثنا تاريخ الأدب عن نهضة أمة من الأمم أو حضارة من الحضارات يلجأ غالباً الى حوادث التاريخ يستعين بها على التحديد الزمني لبدء عصر وانتهاء عصر . وغير خاف أن هذا التطفل الأدبي لا يعني أكثر من طلب التوقيت . او التأريخ ، وأن حياة الفكر ـ والأدب بعض منها ـ لا يمكن أن تحد بفترة معينة أو سنة بعينها ، لأن للفكر حياة عميقة تمتد جذورها وراء حوادث التاريخ .

وقد جرت عادة مؤرخي الأدب أن يحددوا عصور الدول المتتابعة التي يطلق عليها بعضهم تجوزاً اسم عصور الانحطاط بسنة ٦٥٦ للهجرة ، وهي سنة سقوط بغداد على يد التتر ، وسنة ١٢١٣ وهي سنة وصول نابليون بحملته الاستعمارية الى مصر . ولا شك أن كل عصر من العصور يؤثر في العصر الذي يليه ، وأن كل ثمرة تظهر في فترة ما ، إنما تنتج عن بذور غرست في فترة قبلها ، وأن عصور الدول المتتابعة لم تبدأ سنة ٦٥٦ يوم سقطت بغداد ، وإنما بدأت قبل ذلك بكثير حين بدأ الضعف يتسرب الى حكم العباسيين حتى حملت أواخر عهودهم بذور الضعف ورعتها ، فاذا هي تنمو وتشتد حتى اذا وجدت فرصة ملائمة وبيئة صالحة لها ظهرت وأثمرت فكانت عصور انحطاط . ومثل ذلك ما نستطيع أن نقوله بصدد بدء عصر النهضة ؛ إذ ليست حملة نابليون أكثر من حادثة تاريخية بارزة بدأت تظهر من بعدها آثار استعداد كامن للتحفز والنهوض.

ولعل أبرز ما يجذب النظر في مفتتح عصر النهضة أن العرب وقفوا فيه أمام تيارين عظيمين أو رافدين غزيرين : تيار متلألىء بمدنية الغرب ، وتيار فيه قداسة الماضي وعبقرية الأجداد وشذا الشرق .

ولعل الصراع بين هذين التيارين هو أبرز صفحات تاريخنـــا الأدبي واللغوي في عصرنا الحاضر ، ولعل الجانب اللغوي منه هو وحده الذي يمثل لنا صورة صادقة للكفاح المرير الذي مرت به أمتنا منذ فجر النهضة وما زالت تمر به حتى يومنا هذا .

لقد فتح الشرق الغافل عينيه فإذا هو أمام نور يخطف الأبصار يجذبه نحو الغرب ، وأمام تركة متراكمة فيها الدسم السمين ولكنه غارق في ركام من مخلفات الأيام ورواسب العصور ، وهو ركام تنبعث منه روائح الشرق . لقد وجد نفسه بين هذين التيارين في كل شيء ؛ في المأكل والمشرب ، وفي الملبس والمسكن ، وفي الروح والآلة .

وكانت اللغة مرتسماً لهذا الصراع أو التجاذب بين غرب مثطلع غاز وشرق مغزو حائر ، فاللغة في كل زمان ومكان هي المرتسم الحضاري للناطقين بها ، وهي في صميم المعركة لدى كل احتكاك حضاري بين أمتين . وليس بالإمكان أبداً أن تكون اللغة في معزل عن هذا الصراع ، ومن توهم إمكان ذلك كان جاهلاً بطبيعة اللغة ! انها كائن حي مثلنا، تولد وتنمو وتعيش ، وتضعف وتضمحل وتموت ، وهي في مجال الاحتكاك الحضاري

أكثر فعالية منا لأنها هي أداة الاتصال بين الأمتين أو الحضارتين ، فهي رسول حضارة او هي جسر بين الحضارتين .

ولعلنا نستطيع الآن أن نسأل عن بعض ما أصاب العربية في عصر النهضة الحديث من جراء التجاذب بين الغرب والشرق .

تاريخ العربية المعاصر هو تاريخ صراع العرب مع الاستعمار ، لا يمكن فصلها ولا فهمها من دونه ، بل نحن نرى أن تاريخ العربية المعاصر صورة لكفاح العرب ضد الاستعمار من أبرز الصور إن لم تكن أبرزها على الإطلاق .

ولا بد أن ندرك أن الاستعمار قد تطور كما تطور غيره ، وأفاد من تجاربه وتاريخه الأسود ، فإذا هو يترك شكله العسكري الساذج المكشوف ليصبح استعماراً فكريا يوفر على نفسه كلفة الجيوش وصد الثورات ، ويضمن لنفسه النفاذ الى أعماق الأمة .. ونضجت مدارك الشعوب المستعمرة وكشفت هذا النوع من الاستعمار أوالتبعية الفكرية، وكان جهابذة الاستعمار قد انتقلوا باستعمارهم الى نوع جديد من الاستعمار يصعب كشفه ، وتستحيل معرفته إلا على من أوتي البصيرة النافذة وظل على صلة بأصالة الشخصية العربية وأسلوب تفكيرها .

هذا النوع من الاستعمار الفكري لا يتميز بطابع غربي ولا شرقي ، بل هو عربي المظهر شعوبي المخبر ، ظاهره فيه لنا النصح والإرشاد ، بل

التوجيه والاصلاح ، وباطنه من قبله الدس والتخريب والإفساد . إنـه يعيش بيننا ، ويلبس لباسنا ، ويتكلم بلساننا وبذلك يخفى علينا ، إنه ليس كالوباء الذي تظهر بثوره على الجلد فيراها المريض ويقاومها حتى يبرأ منها ، ولكنه المرض الذي يستوطن أعماق الصدر وما يزال يقوى حتى يسكت حركة القلب . إن بين أبنائنـــا ـ نحن العرب ـ من صنعهم الاستعمار على أعينه وغذاهم بلبانه ، فاذا هو منهم مكان العقل الذي به يفكرون ، والعيون التي بها يبصرون ، والأيدي التي بها ينفذون ، ويراهم الجاهل منا ويسمعهم الغافل من أمتنا ، وهم في مراكز الإرشاد والإصلاح والتوجيه ، فيحسبهم عرباً أعراباً لحمتهم العروبة وسداهم العربية !

أما هم أنفسهم فهل يعرفون جميعاً أنهم مطايا ؟ وهل تدرك كل مطية حين تمتطى أنها مطية ؟ أتبلغ الغفلة ببعض المطايا أن تظن المطية نفسها قائدة لفارسها ..

ولنترك هؤلاء في كل ميدان لنقف منهم على الحقيقة في ميدان اللغة . واللغة بالنسبـــة الينا ، نحن العرب ، آخر معقل يتجه إليه الاستعمار ، فهي آخر جبهاتنا ، وهي أقوى حصوننا ، وهذا ما يفسر لنا شدة الطعن وعنف الهجوم عليهـا .

لم يكد ستار التـــاريخ ينسدل على عصور الدول المتتابعـــة ليشرق من بعده فجر جديـــد ، حتى بدأ في حيـــاة العرب عصر صراع جديد ، وقد تمثل هذا الصراع أكثر ما تمثل في صراع القديم مع

الجديد ، وكان للغة منطوقها ومكتوبها نصيبها من هذا الصراع ، وظهرت على أثر ذلك آراء ودعوات ، ولسنا ننكر أن معظم هـــذه الدعوات لقيت في حالة اللغة العربية إذ ذاك ما ساعدهـــا على الجرأة والنماء والانتشار ، وذلك أن عصور الدول المتتابعة لم تنحسر إلا بعد أن وصلت بالعربية الى حالة من العجز والضعف يشعر معها أحسن الأطباء باليأس من الشفاء ...

لقـد كانت معظم النماذج اللغوية في تلك العصور جثث ألفاظ لا روح فيها ولا حياة . كانت لغة قعد بها العجز ، وقيدتها الصنعة الثقيلة المتكلفة ، وأبعدتها اذواق اصحابها وسياسة حكامها عن الحيـاة العامة ، فإذا هي في عزلة تامة - ولقرون عديدة - عن كل ما يتصل بالحيـــاة الاجتماعية أو السياسية أو الفكرية أو العلمية . وفي هذه الفترة ، واللغة على تلك الحال التي وصفنا ، يرتفع الحجاب بين الشرق والغرب ، فإذا هي على عجزها وقلة غناها وجهاً لوجه امام مدنية زاخرة زاحفة ، وحياة جديدة ، ومطالب سريعة ..

ولم يكن بإمكانها أن تنهض بما انفتح عليها من اسباب المدنية الحديثة لأنها كانت اعجز من ان تنهض بنفسها ، فكان عجزها الذي وضعت فيه واجبرت عليه فرصة سانحة لأعدائها ، يأخذونها به طعناً وإزراء ... ويوجهون لها - بدافع منه ودوافع أخرى من غيره - تهماً شتى يريدون بهـا الإجهاز عليها والانتهاء منها .

وكان من تلك الدعوات دعوة تنادي باستعمال الأعجمي على عجمتـــه، وتقبل الغريب والدخيل . وأصحاب هذه الدعوة فريقـان : فريق يرى أن المدنية الغربية سبقتنا الى مخترعات كثيرة، ووضعت لها اسماءها، ولا يضير العربية أن تأخذ عن تلك اللغات ما وضعته من الاسماء والمصطلحـــات ما دمنا قد أخذنا عنها تلك المسميات ... فنحن حين استعملنا آلة تسمى (التليفون) مثلاً لا بأس أن نأخذ اسم تلك الآلة معها ، وأن نقول تليفون ، وتلفن ، وتلفنت ، ولا لزوم لاستعمال كلمة الهاتف .

ويقول واحد من انصار هذه الفكرة : أن نقف في وجه الألفاظ الغربية وقفة اعتباطية، فهذا لا يكون أفضل للغة العربية ولا أبقى عليهـــا، اذا اقتحمت الألفاظ الغربية سياج العربية وتكيفت حول مادتها ، فهو دليل على أن تلك الألفاظ الغربية ليست داء مميتاً ...[1] ويعتمد صاحب هذا الرأي في تقرير كلمةما وقبول استعمالها على الذوق العام لأنه عنده ذوق سليم فيقول « إذا كنا اليوم نقول تلفن ولا نقول هتف ، فـلأن كلمة تلفن يفرضها الذوق العام الذي هو ذوق سليم ... الذي هو ذوق المجموع ... والذي هو منطق الحياة . »[2] .

ويقول : لا فرق بين ان نقول تلفون وان نقول هاتف ... لا نرى

(١) كتاب فلسفة اللغة . ص : ٢٨٠
(٢) المصدر السابق . ص : ٢٨٢

فرقاً بينها ما دامت كلمة تلفون تنطبق على الوزن العربي ! وتمكننا من أن نشتق فعل تلفن ما دامت الحروف المؤلفة منها أي التاء واللام والفـــاء والواو والنون هي حروف عربية ... » ويستطرد الى القول : « نعم ، لا مانع من أن نقول : دكتر ، واكس ، وكرتز ، ورودضج ، وشوفر وبومر » [1] وقس على ذلك اسماء كل أدوات المدنية الحديثة .

ولسنا ندري ما ذا يجد صاحب هذا الرأي من دليل في قبول اللغة العربية لاقتحام الألفاظ الاجنبية حماهـــا ؟ وكيف تكون حروف (تلفون) مثلًا عربية ؟ أنحن نقول إنها مؤلفة من التاء واللام والفاء ... العربيات أو انها مؤلفـــة من T. E. L. E. P. H. O. N. E. الأجنبيـات ؟ وهل نطق الحرف اللاتيني بلفظ يقابله في العربيـة يعني ان الكلمة التي تشكلها تلك الحروف اللاتينية كلمة عربية ؟ واي كلمة أجنبية لا تكون عربية بعد ذلك ؟

خذ كلمة (تلفزيون) مثلا تجد أنها على قياسه عربية محض، فهي مؤلفة من التاء واللام والفاء والزاي والياء والواو والنون،وهي حروف عربية .. وهكذا يؤدي بك القياس الرائع الى ان تجعل كل لفظة اجنبية عربية ما دامت مؤلفة من حروف تلفظها بنطقها العربي !

بل نحن نقول لماذا لا نقرأ الألفباء اللاتينية بلفظ عربي ونستريح ؟ ثم لا ادري كيف يسوغ عربي لنفسه ان يتنكر لطبيعة اللغة واصالتها

---

(١) فلسفة اللغة ص : ٢٩٠

وعراقتها واصول اشتقاقهـــا ليقول إن من العربية أن نقول روضج وأكس وشوفو .

إلا إذا كان صاحب الاقتراح منكراً لطبيعة اللغة،غافلاً عن خاصتها الاشتقاقية ، لان في اقتراحه تمرداً ارعن يؤدي الى بتر العربية في مستقبلها عن ماضيها .. هاتوا أعرابيـــاً من الصحراء واسألوه ماذا يفهم من كلمة (مذياع) مثلاً وكلمة (روضج) ؟ . إنه على الرغم من جهله بالمذياع يستطيع ان يرى في مادة الكلمة معنى الذيوع والانتشار ، ويرى في قالبهـا أو صيغتها معنى الآلة (لأن وزن مفعال في لغته مستعمل للدلالة على الآلة كمفتاح ومزلاج) وبذلك يصل إلى ان المذياع آلة تذيع ، على حين لا يستطيع ان يرد كلمة روضج الى اصل عربي يهديه الى معنى مادتها او صيغتها .. وشتان ما بين كلمة تحمل سمة اصالتها وهوية معناها في لفظها ، وكلمة مقطوعة النسب ضائعة الأصل !

والفريق الثاني ينادي بأن يكون التعليم في بلاد العرب بلغة أجنبية ، وذلك لأن اهل تلك اللغة سبقونا في ميادين تلك العلوم ، فـــلا بد من الاستعانة بلغتهم لتحصيل علومهم ، وإذا اعتدل بعض هؤلاء في حماستهم للغة الأجنبية نادوا بأن تكون في البلاد لغة اجنبية او لغات تعيش الى جانب العربية سواء بسواء .

يقول أحد دعاة هذه الفكرة : « إن بلداً كلبنان إذا لم يتكلـــم

لسانين، أقل ما يقال فيه إنه ابتر ، والحقيقة أننا نختزن هنا ، منذ القدم مجموعة من اللغات الحية والميتة » ويقول : « وكيف يمكننا ان نحفظ وننمي الروابط اللازمة التي يفرضها علينا التعليم في جميع مراحله ، والتي توجبها المباحث العلمية والاسفار والتجارة وسياسة لبنانيينا المهاجرين الى انحاء العالم كله فضلاً عن الضرورات الحاسمة في السياسة التي يوجبها موقفنا الجغرافي ، قلت كيف نحفظ كل هذا لو لم يكن لنا ، الى جانب اللغة العربية ، وبمقدار إتقاننا إياها إحدى اللغات العالمية » ؟[1]

ومثل هذا الراي ما كان صرح به الاب لا مانس ودعا اليه ووصل به الغلو فيه الى حد القول بأن اللغة القومية تصبح حاجزاً منيعاً دون مواصلة التقدم !![2].

والحق ان إتقان لغة أجنبية من قبل المثقفين في الأمة أمر ضروري ، ولكن شتان ما بين هذه الضرورة ، وبين ان يكون للأمة الى جانب لغتها لغة أجنبية تتقنها إتقانها للغتها الام . واما ان ندعي ان الضرورات السياسية تفرض علينا شيئاً في مجال اللغة ، فذلك بعد عن طبيعة اللغة وخلط لا مسوغ له ، وليس فرض اللغة الاجنبية في التعليم العالي بأقل مغالطة من ذلك الخلط .

---

(١) ميشال شيحا ، والنقل عن فلسفة اللغة ص ٢٨٣ .

(٢) رسالة المنبر الى الشرق لفليكس فارس : ٧١ .

ونحن نعجب كيف فكر هؤلاء حتى ظنوا أن نقل فئة من ابنائنا الى مجال العلم باللسان الاجنبي خير من نقل العلم بكامله الى الأمة بكاملها باللسان العربي ، إذ أليس جعل التعليم العالي بلغة اجنبية معناه ان يصبح أفراد منا ، وهم طلاب الدراسة العالية ، على صلة بتلك اللغة وما كتب بها من علوم ، على حين ان كون التعليم العالي بالعربية معناه اننا نقلنا العلم الى كل من يرغب من ابناء الامة ، وجعلناه في متناول لسانه وفكره !

واذا كان لنا من التاريخ عبرة ،فهل حدثنا تاريخ التقاء الغرب بالشرق، حين التقينا أول مرة ، لقاء الغرب المتعلم مع الشرق المعلم ، هل حدثنا ان الغرب استشرق او استعرب بلسانه او فكره ؟؟ هل ذكر تاريخ امة في الدنيا ان غربياً واحداً نادى يوم كان الغرب يقعد من الشرق العربي مقعد التلميذ من استاذه ، بان تكون العربية لغة التعليم في الغرب ؟؟ إننا لم نسمع بشيء من هذا ، ولن نسمع به ما دام بين الناس من يعرف ان اللغة ليست مجرد وسيلة للتفاهم ، وإنما هي جزء من شخصية الامة ، وركيزة من ركائز قوميتها ، وشيء من معناها .. ، إننا لن نسمع احداً - عند غيرنا - ينادي بالتخلي عن لغته إلا اذا سمعنا مخلوقاً ينادي بالتخلي عن جلده ليكون له لون آخر ، وعن لسانه ليكون له ترجمان غيره ، وعن فكره ليكون له اسلوب آخر

في التفكير ، وعن روحه التي بها مسكة الحياة وقوام الامر ... ليكون له من بعد ذلك كله خَلق آخر .

وقريب من هؤلاء المستعجمين اولئك الذين ينادون باتخـــاذ الحرف اللاتيني واستعماله للكتابة العربية موضع الحرف العربي ... فلقد هولوا امر الاملاء والكتابة ، وأعيتهم السبل فنادى فريق بوضع قواعد جديدة لكتابة الخط العربي ، واقترح بعض هؤلاء (المصلحين) أشكالاً للحروف يحتاج احسن الناس ثقافة منا الى أن يتعلم حروف لغته فيهـا من جديد ليستطيع القراءة والكتابة ... إنها طريقة طريفة لولا انها تجهّل المثقفين قبل ان تعلّم الأميين ... وتستغني عن جيل او جيلين آخرين بانتظار نشأة جيل جديد فاهم لها متمرس بها ... ثم تستغني بعد ذلك ايضاً عن جيل او جيلين آخرين حتى يتم نقل تراثنا القديم وكتابته حسب الطريقة الجديدة . إن جيلاً أو أجيالا يجب ان تتفرغ لإعادة كتابة التفـــاسير والتواريخ وكتب الادب واللغة حتى يستطيع ابناؤنا ان يعرفوا لغتنـا ويفهموا مخلفات أجدادنا ... ولنلاحظ ان هذه الاجيال التي ستتفرغ لهذا النقل او الترجمة ينبغي ان تكون ملمة بالطريقتين جميعاً !!..

واما الذين نادوا بالكتابة بالحرف اللاتيني فهم ايضاً يدّعون الإصلاح ، وليس لهم من غرض سوى تسهيل القراءة وتخفيض نفقات الطبـــاعة ! إنهم حريصون على أموال الأمة العربية أن تضيع في نفقات الطباعة !!

وأية طباعة ؟ طباعة حروف العربية وحدها . . . إذ هو وحده الأمر الذي لا تحتمله نفقة ، ولا يقوم به مال . ويقول الاستاذ انيس فريحة استاذ العربية في الجامعة الاميركية : «يطالب ، مثلاً ، بعض النـــاس يتبنى الحرف اللاتيني تسهيلا للقراءة وتخفيضاً لنفقات الطباعة . ونحن من المؤمنين بهذه النظرية ، ولا نرى حلا للكتابة إلا يتبني الحرف اللاتيـني وضبط الكلمات فيه مرة واحدة » .[1]

ونحن إذا أقررنا بأن اللغة يجب ألايبقى في تعليمها ومعرفة كتابتها صعوبة ، وأقررنا، خلافاًلكل نظريات التربية، أنـــه لا ينبغي للمتعلم أن يبذل شيئاً من الجهد في تعلم لغته ، وأقررنا بعدذلك بأن في كتابة بعض حروفنا صعوبة ، فهل يصل بنا التفكير السوي السلـــيم الطوية الى أن نقترح التخلي عن الحروف العربية دفعة واحدة !!

أرأيت إذا كان ابنك فاقد العين أو مقطوع اليد ، أكنت تستغني عنه دفعة واحدة لتتبنى ابناً آخر سوي الخلق ..؟

لست أدري ! لكني اعتقد ان العربي يشعر نحو لغته ، ألفاظهـــا وحروفها وصورة حروفها، بعاطفة لا يشعر بها نحو سواها ... وأكادأجزم أن لساناً ينطق عن قلب عربي وتحركه عاطفة عربية ، لا يستطيع ان يستبدل للغته شكلا غير شكلها العربي الاصيل .

---

(١) تبسيط قواعد العربية : ١٤

وحسبنا اذا لم يقنع المستعربون بحجة عاطفتنا العربية الصـــادقة أن نوجه نظرهم الى ان للخط العربي صلة بصيغ الكلمات او اوزان الالفاظ في اللغة العربية ؛ وذلك أنه لما كانت في العربية صيغ واوزان ثابتة معروفة كاسم الفاعل،واسم المفعول،وجمع المذكر السالم، وجمع المؤنث السالم، وكانت المواد اللغوية تصاغ في هذه القوالب او الصيـــغ الثابتة (مثل كاتب ، شاعر ، ناثر ، معلمين ، معلمون ، مستمعـــين ، مستمعون مدرسين ، مدرسون، معلمات ، كاتبـات) ، كانت لها اشكال او رسوم متشابهة أو مختلفة تشابهاً واختلافاً يساعدان على ايجــــاد ضرب من ضروب الجمال في الكتابة العادية .

كما ان في تنويع الحروف بأشكالها ونقطها وكيفية رسمها ما يساعد على جعل بعض انواع الخطوط صوراً زخرفية جميلة تنبه اليها حتى الذين لا تربطهم بها رابطة . قال دونسون روس : « ان حروف العربيـــة مرنة سهلة،لها في النفوس ما للصور من الجمال الفني ... ولا سيما حـــين تنقش على مداخل المبـاني او الاضرحة سواء كانت ثلثاً او كوفيـــاً او نسخاً [1] ..

اضف الى ذلك ان حرفنـا العربي صلح لتكتب به لغـــات متباينة تنتسب الى مجموعات مختلفة ؛ فبه تكتب الفارسية والتركية قديمـــاً ،

---

(١) الرسالة عدد : ٦ ابريل سنة ١٩٣٣

والاردية والملايوية، وهي لغات من فصائل مختلفة ، على حين ان الحرف اللاتيني لا تكتب به الا لغات عائلة واحدة هي الجرمانية الهندية ، واذا زادت بعض تلك اللغات الى الحرف العربي بعض النقط فانه ليصلح لذلك ويتسع له ما لا يتسع الحرف اللاتيني (١).

العامية واللهجات المحلية

ولعل اخطر ما مر بالعربية في تاريخها الطويل محاولة تفكيكها وتشتيت اوصالها ، وتلك هي صورة لغوية ثانية لما قام في بلاد العرب ويقوم من محاولات التجزئة والتفريق بين شعوب الوطن العربي الواحد .

إن الغارة على الوطن العربي والحضارة الاسلامية ومقوماتها كانت غارة شديدة عنيفة لم تزدها الايام إلا قوه واحكاماً . وذلك لأن المغيرين على حضارتنا ادركوا – كما ادركنا نحن – ان وحدة العرب اللغوية اقوى من وحدتهم السياسية ، لانها ركيزة من ركائزها ، ولانها وحدة لاتهزم ، ولانها وحدة لا يمكن تفكيكها ما دام في العربية كتاب لا يختلف في نطق حرف واحد منه اثنان ، وهو يتلى آناء الليل واطراف النهار .

ولقد اثبت تاريخ العربية هذه الحقيقة ايام انحلت الوحدة السياسية لدولة العباسيين ، فقامت في احضان الدولة دول ؛ فاذا خليفة عباسي في بغداد ، وامير حمداني في الموصل ثم في حلب ، وحاكم إخشيدي ثم

(١) انظر ص ٣٧ – ٤٠ من كتاب أشتات مجتمعات للعقاد.

فاطمي في مصر ... وحـــاكم ثم خليفة اموي في الاندلس ، ودول عربية اخرى في اطراف المغرب ... ونرى على رغم ذلك لساناً عربياً واحداً يجمع شعوب تلك الدول ، وترى مواطناً من إحدى تلك الدول كالمتنبي الشاعر يخرج من بغداد فيأتي حلب ، فاذا هو أمير البيان في دولة بني حمدان ، ثم يعود الى العراق،لا يشعر في تجواله - ولا نشعر معه - أنه خرج من دولة الى دولة، او من وحدة سياسية الى وحدة سياسية ثانية ، وانما يشعر - ونشعر معه - أنه عربي يتنقل في وطن عربي واحد ، السيادة فيه للسان العربي المشترك الواحد .

وتبقى حقيقة الوحدة اللسانية حية صارخـــة ، ويأتي تاريخ العرب الحديث ليعلن ثانية - وعلى رغم كل المحاولات - أن العربية واحـــدة موحِّدة وموحَّدة على رغم الاسماء الكثيرة التي يعبر بها كل شعب عربي عن كيانه السياسي . وإن القول بأن الوطن العربي يمتد من المحيط الى الخليج قول لا ينطبق الا على الوطن الذي تسود فيه اللغة العربية الفصحى .

لقد أصبحت هذه الحقيقة بالنسبة الى اللغة العربية أمراً مسلماً به ، وادرك العرب كما أدرك اعداؤهم أنه لا انفصام لوحدة العالم العربي مادام يجمعه اللسان الواحد . ومن هنا تبدأ المحاولات لتفكيك هذه الوحـدة اللسانية ، حتى اننا لنستطيع ان نقول إن ما يوجه لتجزئة الوحـــدة

السياسية للعالم العربي ، أو للحفاظ على هذه التجزئة القائمة ، لا يعد شيئاً اذا قيس بما يبذل لهدم الوحدة اللغوية .

ولعل من أخطر ما ظهر في هذا المجال فكرة تشجيع اللهجات المحلية ، والدعوة الى اللغة العامية ، وذلك أن اللغة لا بد – اذا اتسعت رقعة المتكلمين بها – من أن تظهر فيها اللهجات . واختلاف اللهجات أمر طبيعي لابين المناطق المتنائية بل بين الأحياء في المدينة الواحدة أحياناً ، وبين طبقات الأمة من مثقفين وغير مثقفين ، وبين الرجال والنساء ..هذا واقع لا ننكره ،ولكن فرق بعيد بين الاعتراف بهذا الواقع وبين الإقدام على تشجيع هذه الفوارق وترسيخها والتخطيط لها لتصبح لغة ثانية ، الى جانب اللغة الفصحى ، نعترف بها وندرسها ، ونقيم لها وزناً ونزعم ان لها ادباً .

إن اللهجة عندنا لا تعني اللغة ، ولا تشكل خطراً على اللغة ، وإنما هي صفة أو صفات صوتية تتصف بها لغة منطقة من المناطق ، فعربية العراقي مثلاً تتصف بصفات صوتية تجعلها مختلفة في النطق عن عربية المصري أو الشامي أو اللبناني ... بل إن عربية الشام لتختلف بين نطق الدمشقي والديري والحلبي ... وهذه الاختلافات الصوتية هي التي نسميها باللهجات . وهكذا نجد في اللغة الواحدة لهجات تختلف باختلاف المناطق وتباعد البلدان ، ومن الواضح الجلي بعد هذا ان اللهجة شيء وان العامية

شيء آخر ، إن العامية في الحقيقة لغة ثانية ، وهى لغة فوضوية ، لأنها لا قاعدة لها ، وليس من منطقها ولا طبيعتها ان تكون لها قاعدة !

وهي لغة خليط ! فبعضها فصيح الاصل عربي النسب ، ولكنه تغيرت مخارج حروفه ، أو لعبت به السن العوام فحرفته عن أصله وأخرجته عن صورته ، (يقول العوام : بؤعة او بعأة وأصلها : بقعة . ويقولون وئع أو وعىء ، وأصلها :وقع . ويقولون : شلونك ؟وأصلها : أي شيء لونك؟ أي حالك ..) وبعضها غريب دخيل ما زال في العربية راسباً من رواسب لغات امتزج اهلها بالعرب في فترة من فترات التاريخ كبعض الكلمات التركية (دغري . يوزباشي ...) . فالعامية إذاً ليست صفة من صفات العربية كاللهجة ، ولكنها لغة ثانية تعيش على حساب الفصحى وتزاحمها ، احتلت مكانها على ألسن الكثيرين ، ويراد لها أن تحتل مكانها على الاقلام وإن من اكبر المغالطات واخطرها ان يدافع عن اللهجات وهي صفات ، بصدد الدفاع عن العامية واقناع الناس بها ودعوتهم اليها وهي لغات. والعاميات في الاقطار العربية متعددة بتعدد تلك الاقطار ، وإقرارها فيها إقرار للتفرقة والتجزئة . وإن لنا في غيرنا لعبرة ، فتلك هي اللغة اللاتينية التي انشعبت الى لغات ، فانشعب المتكلمون بها الى شعوب ، وهي شعوب لا يفهم اليوم بعضها عن بعض ، ولا توحد بينها ثقافة ، ولا تجمع بينها جامعة ، حتى أن بعضها كان خصماً لدوداً لبعضها

الآخر في الحرب الأخيرة .. ولقد واجهت فرنسا مشكلة تعدد اللهجات المحلية إبان حكم الثورة ،وتنبه رجالها الى خطر هذه المشكلة فكان رأيهم ما قاله على لسانهم الراهب غريغوار : « إن مبدأ المساواة الذي أقرته الثورة يقضي بفتح أبواب التوظيف أمام جميع المواطنين ، ولكن تسليم زمام الإدارة إلى أشخاص لا يحسنون اللغـة القومية يؤدي الى محاذير كبيرة . وأما ترك هؤلاء خارج ميادين الحكم والإدارة فيخالف مبدأ المساواة . فيترتب على الثورة ـ والحالة هذه ـ أن تعالج هذه المشكلة معالجة جدية ، **وذلك بمحاربة اللهجات المحلية** ونشر اللغـة الافرنسية الفصيحة بين جميع المواطنين . »[1]

بل لقد كان من بيانات مجلس الثورة الفرنسية بيان جاء فيه : أيها المواطنون . ليدفع كلًا منكم تسابق مقدس للقضاء على اللهجات في جميع أقطار فرنسا ، لأن تلك اللهجات رواسب من بقايا عهود الإقطاع والاستعباد .

وقد أراد أعـداء العرب للعربية ذلك ، فاذا هم أمام أمة ـ مهما تختلف أقطارها ومهما تختلف حكوماتها ـ يوحدهـا اللسان ، وتجمـع بينها الفصحى وتشدها الى الوحدة .. فقاموا يقللون من شأنهـا ، ويسفهون فكرة قداستها او أصالتها .. وقد رأينـا منذ قليل كيف رأى بعضهم في الخط العربي وثاقاً يشد العرب الى ماضيهم ، فحاولوا النفاذ اليه لطعنه

(١) عن كتاب آراءوأحاديث في اللغة والأدب : (ص ٧٠) لساطع الحصري .

تارة باسم صعوبة الاملاء ، وتارة باسم تسهيل الطباعة .. بل لقد رأينا من يكشف عن غايته بدون مواربة لينادي ببتر الثقافة العربية عن ماضيها ، ليسهل (تغريبها) باتخاذ الحرف اللاتيني بديلا من الحرف العربي .

ولعلنا لا نعجب بعد ذلك اذا عرفنا أن الذي نادى بتغيير الخط العربي هو نفسه الذي ينادي بالعامية ويزينها للناس فيقول « إن الفصحى ليست لغة الكلام ، فلا يرجى منها أن تعبر عن الحياة بحلاوتها ومرارتها وقسوتها ولينها كما تستطيعه العامية ، والدليل ظاهر ، فانك لا تستطيع أن تقول بالفصحى ما تقوله بالعامية ، واذا نقلته الى الفصحى أتى جافاً قاسياً خلواً من العنصر الإنساني اللصيق باللغة . تصور على المسرح فلاحـــاً يتكلم الفصحى ، او سكيراً يتكلم الفصحى ، أو خادمة تخاطب سيدتها بالفصحى أو نجيب حنكش يقص افاصيصه الزحلاوية البرازيلية بلغة الزمخشري . أو المجلات المصرية تنقل كلام ابن البلدة الى الفصحى[1] ...

انها لفكرة أهون على العقل من أن يرد عليها ، فهي ميتة منـــذ ولدت ، وليس دليلها إلا نقضاً لها ورداً عليها ... ولو أن صاحبها قال: لا تتكلموا الفصحى لأن السكير والخادمة ونجيب حنكش وابن البلدة لا يتكلمونها ، لاستراح وأراح ، إذ لا دليل له – وان سمى المغالطة دليلًا – سوى ما ذكر ... وهل يعتقد ان القياس المقلوب ينطلي على

(١) نحو عربية ميسرة لانيس فريحه ص ١٣٣

الناس حتى يقبلوا أن تصبح مقاييسهم في حياتهم ولغاتهم منتزعة من تلك الطبقة التي استدلّ بأفرادها؟ وهل المنطق والحضارة والمدنية والعقل والعلم في ان يجعل الانسان مثله الأعلى من هو دونه !؟ وهل يقبل العربي الذي عرف عزة العربية ونصاعة اسلوبها وبيان ألفاظها في قرآنه،أن يجعل مثله الاعلى في اللغة ألسنة السكارى والخدم؟ ولعل غيره كان أسعد بمثاله حين نفذ ما دعا اليه من أمر الكتابة بالعامية ... وكان مماقاله هذا (السعيد) في تقدمته لديوان شعري بصدد الحديث عن الجمال: « نشوه كل معرفي فيك بترافقو لزي ، بس اللزي البترافق المعرفي البيعملها الجمال بتفرق عن غيرها بأنوا فيها شي من التخدير ، من الحلم ، من الهز ، كأنو الكون الانت فيه مرجوحا .

وان تعمقنا أكتر منشوف روح الجمال حركي صوب التوحد ، اجزاء عمتتلم بكل . طيشرا عمتصير نظام . وهالنظام مثل كأنو بساطا مع أنو مركب من الف تنويعاً وتداخل . شعور غريب . شعور بانوا التعقيد زاتو صار عمير حرج [1] ..

ولست ادري ماذا يبقى من العربية اذا هي صارت إلى هذا الشكل وكتبت كما يريدون بالحرف اللاتيني ؟؟ ولكنهـــا على كل حال تجربة كانت هي نفسها اكبر دليل على اخفاقها . ومن منا يستطيع أن يصل بين

(١) من مقدمة سعيد عقل لديوان (جلنار) لميشال طراد .

هذا المسخ المشوه وذلك الاصل العريق ؟ ومن من أبنائنا سيفهم عنا وعمن سبقونا ؟؟ وأي عربي في الدنيا سيستطيع بعد ذلك ان يقرأ الكتاب الذي نزل بلسان عربي مبين ؟.

إن أبرز ما تفخر به عربيتنا أنها قادرة على متطلبات العصور بما تتصف به من مرونة التعبير ، ووسائل الاشتقاق ، مع محافظتها على صفات الاصالة والخلود ، وهي لولا هاتان الصفتان جميعاً لما بقيت حتى اليوم ولما اتسعت لكتب الطب والفلسفة وسائر العلوم ثم ظلت يفهمها ابن القرن الحاضر عن ابن الجاهلية ، لم تقطع بينهما الأيام ، ولم تختلف فيما بينهما الحروف .

ثم ان لهذه الدعوة الشعوبية ، أعني الدعوة الى العامية ، وجوهاً غير الوجه اللغوي يجب ان ننظر إليها من خلالها ، لأن الوجه اللغوي نفسه مرتسم كما رأينا لوجوه الأمة الأخرى . ان الدعوة الى العامية وتشجيع اللهجات المحلية - مما يتبناه بعض المستشرقين ، والشعوبيون ، والحاقدون على العروبة والاسلام - هي في حقيقة الأمر دعوة تعني من الوجهة السياسية تفكيك وحدة الامة العربية ، وإقامة كيانات سياسية متفسخة غير متفاهمة ، لكل منطقة منها لسان .. إنهم يريدون أن تسود هذه العامية التي نسمعها في أسواق الشام ومصر والمغرب والعراق والأردن والحجاز .. مع أن عرب هذه البلاد أنفسهم لا يتم بينهم التفاهم إلا

بارتفاعهم عن مستوى لغة السوق الى اللغة المشتركة .. إن المغربي لا يفهم عامية العراقي ، والمصري لا يفهم عامية السوري .. وهكذا ، على حين انهم جميعاً يقرؤون الصحيفة العربية فيفهمونها ، ويستمعون الى الإذاعة فيفهمونها .. وإذا موه أولئك الدعاة بأنهم يريدون أن تسود عامية بلد واحد ، فنحن نسأل أي عامية أحق من غيرها بالبقاء ؟ وكيف لا تتنازع لغات عامية متعددة بتعدد الاقطار العربية في نظركم الذي تنازعت فيه اليوم لغتان فصيحة وعامية ؟ ثم ألا نعجب نحن العرب حين نسمع من ينادي منا بتفريقنا وتمزيق لغتنا وأداة وحدتنا ، على حين أننا نسمع في أوربا دعوة إلى إنشاء لغة غربية تجمع بين أمم لا رابطة بينها ، فلقد دعا العالم الفرنسي جوليان باندا Jullien Penda عام ١٩٤٦ الى تلك اللغة بقوله : إذا كنا نريد أن نضمن للغرب وحدة روحية فعلينا أن نجهز الحملات في سبيل إنشاء لغة غربية تضاف الى لغات مختلف القوميات الغربية .. هذه اللغة يتلقنها الاولاد جنباً الى جنب مع لغة بلادهم .. بالإضافة الى لغتهم .. [1] فلماذا يدعى العرب اليوم الى ترك لغة وحدتهم الى لغات تفرقهم ، وعقلاء الأمم يدعون الى وجود لغة ـ غير لغتهم القومية ـ لتكون أداة وحدة بعد أن عجزت لغاتهم القومية عن ان تكون لغة وحدتهم ..

---

(1) L'esprit Européen P 27

وان الدعوة الى العامية وتشجيع اللهجات المحلية ليست في حقيقة الامر من الوجهة الاجتماعية سوى دعوة الى التقاطع ، والانزواء والعزلة ، وقوقعة المجتمعات المحلية الضيقة في قواقع لا تتسع اكبرهـــا لمجتمعين اثنين من المجتمعات العربية .

وهي دعوة – من الوجهة القومية – هادمة لما أجمع عليه كل أصحاب النظريات القومية الذين اختلفوا على كثير من مقومات القومية ، ولكنهم أجمعوا على ان اللغة هي المقوم الاساسي والركيزة الاولى في المجـــال القومي . ولعلنا لا نغلو اذا قلنا إننا لا نستطيع أن نضمن لأية وحدة سياسية أو اقتصادية أو ثقافية شيئاً من البقاء والاستمرار ، إلا إذا قامت جميعها على وحدة لغوية . وانه لا بد في المجتمع من أن تكون نهضته اللغوية مرافقة لنهضته الاقتصادية والاجتماعية والعلمية .

والدعوة الى العامية – من الوجهـة الاسلامية – دعوة الى هجر لغة القرآن وإنشاء جيل مسلم من غير قرآن، وعربي من غير عربية .

إن اللغة أداة التفاهم ، ووحدتها طريق لكل وحدة ، واللغة ليست مجرد رموز كما يريد السذج أن يصوروها ليتلاعبوا بها، ولكنهـــا مرآة لشخصية الأمة وطرائق تفكيرها .. إن هذه الألفاظ والتراكيب ليست مجرد أصوات مركبة ، ولكنها قالب للفكر ، وقطع من تاريخ الأمة . إن اللغة العربية – منطوقة ومكتوبة – معين للتراث العربي الخالد ، كل

كلمة فيها تاريخ ، وكل حرف منها مستودع ذكرى ، إنها بألفاظها وأمثالها قطع حية من عادات الأمة وتقاليدها . فمن عرف اللغة عرف الأمة ، ورحم الله عمر ما كان أحكم قوله : من عرف لغة قوم أمن مكرهم . نعم ومن أضاع لغته فقد أضاع نفسه .

إن الأخذ بالحروف اللاتينية وهجر الفصحى الى العامية، دعوتان من دعوات أخرى كثيرة كانت وما تزال تلبس اسماء التيسير تارة ، والتسهيل تارة ثانية ، ومحاولات الاصلاح تارة ثالثة . وهي كلها في الغاية سواء ، وما غايتها سوى هدم العربية ، وهي غاية تتفق مع ما يسعى اليه أعداء العرب في كل ميدان من فصلهم عن ماضيهم ، وسلخهم من شخصيتهم ، وتجريدهم من منابع القوة ومقومات الحياة .

واذا كنا نسمي تيسير هؤلاء (المصلحين) وإصلاح هؤلاء (الميسرين) هدماً ، فليس ذلك افتئاتاً منا عليهم ، ولا تحريفاً لكلامهم ، وإنما هي الحقيقة التي صفعوا بها قوميتهم ، نصفع اليوم بها وجوههم ، إنهم صرحوا بأنه ليس المقصود بالتيسير تبسيط قاعدة ، أو عرضها بطريقة تخالف طريقة القدماء . فهم يقولون ان « هذا ليس بالتيسير الذي نرغب فيه .. ان « التيسير كما نفهمه نحن ، هو التيسير الذي فرضته الحياة .. ولو ان العرب الاحياء أجمعوا على ان قواعد العدد هي قواعد العدد كما في عامية الناس لكان هذا تيسيراً حقيقياً . وبمعنى آخر .. التيسير هو ما يمس

الجوهر لا ما يمس العرض . وعندما يسلم العرب الاحياء ان التيسير ليس امراً مصطنعاً يفرضه زيد وعمرو من الناس ،بل التيسير هو ما يسرته الحياة وفرضته فرضاً . وها إن العامية مثلا أسقطت الاعراب ، وبسطت التركيب ،وحدّدت معنى الالفاظ بإسباغ معني واحد على اللفظة الواحدة، وفرضت أحكاماً للعدد أسهل وأقرب الى المنطق ، وقضت على كل تعسف في قواعد الصرف والنحو ..[1] ، وهكذا يسقط القناع ويرتفع الستار عن مفهوم التيسير والتجديد عند هؤلاء المصلحين ، فاذا تجديدهم قتل للفصحي، وتيسيرهم هجر للغة المسلسلة المقعدة الى لغة شارعية سوقية ، لا أصل لها ولا نسب ، ولا ضابط لها ، ولا قاعدة تحكمها ..

واذا تركنا كل ذلك ونظرنا من وجهة روحية وقومية ووطنية ، وهي هنا الوجهة التي يؤيدها العقل والمنطق ، رأينا أن كلاً من اللهجات المحلية أو اللغات العامية محدودة الأفق ضيقة العطن ، على حين ان اللغة المشتركة للعرب - أعني الفصحى - لغة واسعة الرقعة جامعة للشمل .

إننا نستطيع من خلال واقعنا العربي أن نسأل أين حدود العاميات في أي وطن عربي من لغة تحدها شمالاً لغة الاتراك وشرقاً لغة الفرس وتمتد جنوباً في بلاد العرب حتى البحر وغرباً في الشمال العربي الافريقي حتى البحر ايضاً .. ؟

---

(١) تبسيط قواعد العربية : ١٧

إن هذه الحدود الواسعة هي اليوم حدود اللغة العربية الفصحى ، اي هي اليوم حدود وطننـا الروحي الذي لا يعرف الحدود السياسية ولا الحواجز المصطنعة .

وان قول العرب اليوم إن وطنهم يمتـد من الخليج الى المحيط قول ينطبق أول ما ينطبق وأصدق ما ينطبق على وطن اللسان العربي المشترك . ومن هنا يجب ان نربط بـين الوعي السياسي والقومي من جهة،والوعي اللغوي من جهة ثانية ، .. ان كل وعي ثقافي أو سياسي أو قومي لا يتأتى على وجهه الصحيح ، ولا يتجه نحو الكمال اذا لم يرافقه وعي لغوي سليم . وكيف يكون هناك وعي ثقافي او قومي اذا لم يرافقه بل يسبقه وعي لأول مقومات الثقافة والقومية .

اذا اردنا للانسان العربي أن يعي ذاته ليكون وعي الذات منطلقه الى وعي قومه واصالتهم وخصائصهم فعلينا ان نجعله يعي لغته ، او لسنا نتخذ من اللسان دليلا على مدى (الوعي) عند الانسان ؟ ألسنا نقول: فلان واع ، وفلان عميق الوعي . فاذا مرض واختلت موازينه وخرج عن طوره قلنا :انه غير مالك لوعيه . فاذا ثقل عليه المرض حتى غاب عن ذاته او عن نفسه قلنا :انه فاقد الوعي ..

على اننا لا نسمي واعياً من اكتفى بفهم اللغة ، أو أحسن التكلم بها ، او مهر بالانشاء على أساليبها ، فهذا امر سهل ميسر لمن أراده .

ولكن الوعي السليم – في مجال اللغة – ان يفقه المرء طبيعة لغته وحقائق خصائصها ، ويتخذ – بعد ذلك – من مشكلاتها موقفاً واعياً مبصراً ينسجم مع وعيه لجميع جوانب حياته الروحية والسياسية والقومية والفكرية .

ولعلنا لا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان الامة العربية اليوم بأبنائها ومصلحيها وشعوبها وحكوماتها في أشد الحاجة الى بعث هذا الوعي اللغوي السليم الذي افتقده الكثيرون فكانت لهم امام اعيننا مواقف غريبة متناقضة ..

ان كل دعوة الى بناء المجتمع العربي مهما تلبس من أثواب ، وتنشر من أفكار روحية او سياسية او وطنية او اجتماعية او ثقافية ... اذا لم يكن للغة فيها نصيب فهي دعوة متناقضة او ناقصة .

ان كل دعوة الى نهضة الامة العربية – مهما يكن أمرها وشعارها – إذا لم توفر للغة العرب اسباب نهضتها فهي دعوة بتراء .

ان كل حماية للامة في حدود أوطانها وصد العدوان عنها ، اذا لم تتكفل بحماية لغتها من الضياع والاضمحلال والمزاحمة فهي حماية ناقصة .

ولسنا نقول هذا مبالغة منا في قيمة الوعي اللغوى ، ولا تعصباً منا للغتنا العربية ، ولكنه الحق الذي يأخذ حكم المبدأ العام وينطبق على جميع اللغات .

انه المبدأ الذي ينطبق على العرب حين كانت لهم لهجات فوحدها لهم الاسلام تحت راية القرآن . وينطبق على الالمان حين غزاهم نابليون وجزأ بلادهم، فقام فيهم فليسوفهم فيخته يبعث فيهم وحدة اللغة اساساً لوحدة الامة .

بل ان التاريخ ليقدم لنا أمثلة كثيرة لأمم غزاها الاستعمار وشتت شملها فاذا هي -- وقد اخفق كل سلاح -- تعتصم بوحدة لغتها ،وتتخذ من لغتها رمزاً للكفاح ومقاومة الدخلاء .

وهل ننسى -- نحن أبناء هذا الجيل - كيف كنا نتخذ من بعض الاناشيد العربية رمزاً لإعلان المقاومة السلبية والنضال ايام الفرنسيين. لقد كنا نلجأ الى النشيد فتمدنا كل لفظة فيه وكل نبرة منه بقوة جديدة ... وكنا نكرره مرات ومرات فاذا هو يبعث فينا غاية النشوةوالاعتزاز ، ويفعل في نفوسنا ما لا يفعله السحر ... ان سماء الشام لتذكر يوم كانت اصوات الشباب في هذه الديار ترتفع بنشيد :

يا ظلام السجن خيم   إننا نهوى الظلاما
ليس بعد الليل إلا   فجر مجد يتسامى

ولكم سمعنا أن سلطات الاستعمار حرمت انشاد نشيد معين . وهل هي تفعل ذلك إلا لان الاناشيد الوطنية تصبح في الايام الحالكة معيناً للقوة لا ينضب ، وسلاحاً في يد الامة ولسانها وعقلها وقلبها لا يضل . والا

فلماذا ينبغي ان يكون لكل أمة نسيد رسمي بلغتهـــا القومية تسميه نشيدها القومي أوالوطني ؟وهي تحتفي به فيقف لدى انشاده قادتها حتى رئيسها الاول وتستقبل به كبار ضيوفها الرسميين ... اليس ذلك لان الاعتزاز بهذا النشيد اعتزاز باللغة القومية وبالوطن وبالتراث الذي تمثله لغة النشيد .

وبعد، فهل للعرب عن الفصحى بديل ؟ وهل لهم الى غيرها منزع ...؟ وهي لغة كتابهم الخالد ، ذلك هو القرآن الذي ينظر اليه المسلم على انه وحي السماء الى الارض بلسان عربي مبين ، وينظر اليه العربي غير المسلم على انه النموذج الرائع والمثل الاعلى للبيان المعجز في اللسان العربي . نعم ان العرب ليجتمعون على حب العربيـــة اجتماع الاقوام على حب الاديان والاوطان ، بل ان العربية هي الوطن الروحي لابناء الامة الواحدة ، واذا كانت الارض التي تجمع ابناء الأمة فوق ترابها تسمى وطناً فان اللغة التي جمعت بينهم في اللسان والفكر هي وطن روحي آخر . ومـا اصدق قول Vossler (فوسلر) حين أكد أن من حرم وطنه على الارض فله في لغته القومية وطن روحي يؤويه ... ومن هنا كانت اللغة القومية قوة حقيقية تمكن الشريد المحروم من أن يجد له على الارض وطناً آخر [1] .

---

(1) Vossler, the Spirit of Language : 123 .



من خصائص العربيّة
الإيجاز والإعراب



من خصائص العربية

(١)

الإيجاز

لخصائص اللغة قيمة كبرى في ميدان البحث اللغوي ، لأن هذه الخصائص اللغوية هي المنطلق السليم لكل عمل لغوي إرادي نجريه ، أي لكل عمل نريد أن نجريه في ميدان اللغة ، أو تطور نريد أن تمر اللغة به. وهي الأساس الذي ينبغي أن يعوَّل عليه عند اقتراح الحلول الصحيحة للمشكلات اللغوية . وإن البعد بين هذين الأمرين : خصائص اللغة ، والعمل اللغوي ، هو في رأينا أساس الانحراف في كثير من المحاولات اللغوية التي قام أصحابها يريدون أن يقدموا من خلالها حلولاً لبعض المشكلات اللغوية .

إن من يجهل خصائص لغة ما ، أو يجهل ما تتصف به تلك اللغة ، وما تختلف به عن غيرها من اللغات ، لا يستطيع أن يقدّم الحل الصحيح لأي مشكلة من مشكلاتها. وكثيراً ما رأينا من يريد أن يتصدّى للدفاع عن اللغة ، أو يحاول اقتراح حلول لبعض مشكلاتها ، فينحرف انحرافاً لا يقلّ عن انحراف الطاعنين في اللغة من أصحاب النفوس المريضة أو الغايات الخبيثة .

إن معرفة طبيعة اللغة ، وفقهَ خصائصها ، أمر لا بدّ منه لكل من يتحدث عن اللغة ، دفاعاً عنها ، أو علاجاً لها ، وإن الصمود الذي يبديه

من يُسمَّون بالمحافظين أو المتزمتين لا يكفي وحــــده للردّ على الصيحات المسعورة التي ترتفع كلما ارتفعت حرارة أصحابها وأخذتهم الرجفة ، وراحوا يصيحون منادين بقبول العامي أو الأعجمي ، أو هجر الحرف العربي ، أو الخروج على أساليب الكلام العربي باسم التجديد أو التيسير أو الإصلاح . إنـه لابدّ مع الصمود من البحث الموضوعي الذي يتناول خصائص اللغـة ويكشف من خلالها عن محاسن ما يقال أو مساوىء ما يراد .

كما أن الدعوة إلى التجـديد ، مهما يكن اسمهـــا أو شعارها ، دعوة غوغائية سطحية ما لم تكن دعوة واعية حذرة ، تقوم على أساس موضوعي من التبصّر ومعرفة طبيعة اللغة وخصائصها .

والعجيب في الأمر أن كل من أمسك قلماً ظن في نفسه القـدرة على معالجة مشكلات اللغة ، وكأنه ملك سلاحهـا ، أو كأنهـا حِلّ مشاع لكل ناطق !

إن اللغة ملك لكل الناس يتكلمونها ، ولكنه ليس من حقهم جميعاً أن يتصرّفوا بهـا بحسب أهوائهم ، وهم لو فعلوا لكانت اللغة أمراً فردياً لا يحقق الغاية التي وجد لتحقيقها ، وهي إيجـاد التفاهم الاجتماعي . إن الناس يتكلمون اللغة كما يستعملون الدواء ؛ وليس غير الطبيب المختص يستطيـع أن يصف الدواء . وليس الطبيب في ميدان اللغة من كتب قصة ، أو نظم قصيدة ، أو دبَّج مقالة في صحيفة .

ولقد كانت نيتنا متجهة الى البحث في خصائص اللغة العربية عامة ، ولكننا رأينا ذلك فوق طاقة هذا البحث ، ورأيناه جديراً بكتاب يُفرد له نتناول فيه خصائص اللغة العربية في أصواتها وحروفها مفردة ومركبة ، وفي ألفاظها وجملها .

ورأينا ما دعا الى ترك البحث في خصائص العربية عامة والوقوف عند خاصتين اثنتين من خصائصها ، وهما « الإيجاز » و « حركات الإعراب » ذلك أننا سمعنا الكثير من المطاعن من قبل ، وسمعنا الكثير من الدعوات ؛ سمعنا من يقول :

- اللغة العربية صعبة ، فلا بدّ من تسهيلها .

- قواعد اللغة العربية معقدة ، فلا بدّ من تبسيطها .

- قواعد الاملاء في اللغة العربية عسيرة ، فلا بدّ من تذليلها .

- حروف اللغة العربية باهظة التكاليف في الطباعة ، فلابدّ من تغييرها .

- اللغة العربية قاصرة عن مسايرة الحضارة ، وألفاظها لا تستوعب المخترعات الحديثة ، فلا بد من قبول اللفظ الأعجمي .

- اللغة العربية ليست لغة العِلم ، فهي لا تصلح للتعليم العالي في الجامعات .

سمعنا كل هذا ، بل سمعنا من المستعمرين من بلغ به السخف في الجرأة ،

أو بلغت به الجرأة في السخف إلى أن قال : « إن العامل الاكبر في فقد قوة الاختراع لدى المصريين هو استخدامهم اللغة العربية الفصحى (!) في القراءة والكتابة [1] . » وكأنهم لو استعملوا اللغة العامية لكانوا عباقرة الدنيا في الاختراع والابتكار ... وكأنه ما قعد بالعرب عن بلوغ المجد إلا لغتهم . على أننا إن لم نعجب لغير السخف في هذا القول ، لان قائله عدوٌّ أحرقت الفصحى كبده ، فزاغ عقله وضاع صوابه فانكشف عن مثل هذا السخف ، فإننا نعجب ممن ينتسب الى العرب ثم يدّعي أن التمسُّك بالفصحى من أسباب التأخر والهزيمة !!

لقد سمعنا كل ذلك وأكثر منه ، ولكنا ما أردنا أن نقف في هذا البحث عند شيء منه ؛ إما لان غيرنا سبقنا إلى الردّ على بعضه ، أو لاننا تناولنا بعضه بالبحث في غير هذا الموضع ، أو تجنباً منا لروائح السخف والحقد التي تنبعث من بعضه الآخر .

وأما ما وقَفَنا اليوم فدعوة وادّعاء ؛ أما الدّعوة فقديمة جديدة ، سمعناها قديماً ثم رأيناها تنبعث اليوم من جديد ، وهي الدعوة الى ترك الاعراب ، وقد خصصناها بالبحث القادم تحت عنوان « حركات الاعراب ، معناها وقيمتها في لغة العرب » . وأما الادعاء ففرية جديدة تدّعيها عناصر معينة

---

١ — صاحب هذا القول هو « ويلكوكس » الاستعماري الانكليزي . ومايزال أحد الشوارع في حي (الزمالك) بالقاهرة يحمل اسمه !

في بعض الهيئات الدولية ، خلاصتها أن اللغة العربية لاتصلح لغة رسمية في تلك الهيئات لانها دون غيرها من اللغات إيجازاً واختصاراً !! ولانها تحتاج في كتابتها الى حيّز أكبر مما يحتاج غيرها من اللغات المستعملة !!

ونحن بصرف النظر عمن هم وراء هــــذه الفرية الجاهلة من صهيونيين واستعماريين آذاهم أن تتخذ اللغة العربية لغـــة رسمية في منظمة دولية (كاليونيسكو) فدبّروا فريتهم ، نرى لزاماً علينا أن نبين حقيقة هـذه الميزة الرائعة التي تتصف بها اللغة العربية ، والتي نقدر أنها بها خاصة دون سائر الخصائص - تفوق غيرها من اللغات .

لم يعد يكفي اليوم - ونحن نتحدث عن الايجاز في اللغة - أن ننقل ما قاله العرب في لغتهم ، ولا أن نذكر بما عقده علماؤهم من فصول في مدح الايجاز والثناء عليه . ولايكفي أن نقول : إن العرب ، أصحاب هذه اللغة، حين عرّفوا البلاغة جعلوها في معنى من معانيها تكمن في الايجاز فقالوا : البلاغة الايجاز ، تبياناً منهم لقيمـة الايجاز وحرصاً منهم عليه . وإن أفصح من نطق بلغة العرب جعل الايجاز فضلًا مما آتاه ربه فقال : لقد أوتيت جوامع الكلم . وإن خير الكلام عند العرب ما قلّ ودلّ ...

نقول إن ذكر ذلك لم يعد كافياً لإثبات أن لغتنا لغة مـوجـــزة ، ولكننا ذكّرنا بجانب منه لنُري كيف انقلب الامر الى ضدّه ، وكيف أصبحت لغة الايجاز لغة ينقصها الايجاز !

اللغة التي كان أهلها يعدّون من مفاخرهم أن يبلغوا المعاني الكثيرة بالالفاظ اليسيرة ، أصبحت تعيَّر بالاطالة والاسهاب ، بل بعدم القدرة على الايجاز !

اللغة التي طالما وقف علماء النقد والبلاغة فيها ليمدحوا الايجاز ويشجعوا عليه ، ويكشفوا أسرار الجمال فيه ، وطالما عقدوا الفصول لشرح نواحيه وبيان أقسامه من إيجاز قصر إلى إيجاز حذف ، .. أصبحت قاصرة عن مسايرة غيرها في الايجاز !

اللغة التي طالما وقف نقّادها وعلماء البلاغة فيها عند آية من قرآنها ، أو جملة من أدبها ، أو بيت من شعرها ،معجبين بايجازها ، أصبحت متّهمة بالاطالة والاسهاب !!

اللغة التي كان النقّاد يتخذون من الايجاز فيها مقياساً يفاضلون به بين فرسان بلاغتها وأئمة فصاحتها ، تتهم اليوم بالقصور عن مجاراة غيرها من لغات العجم بالايجاز !! ورحم الله أبا العلاء فقد عيَّر قساً بالفهاهة باقلُ .

الحق أن الإيجاز خاصة من أبرز خصائص اللغة العربية ، وهو يشمل من هذه اللغة حروفها وألفاظها وتراكيبها ، منطوقة ومكتوبة .

أما الحروف فقد تكون في العربية على شكلين أو أكثر ، شكل للحرف المتصل ، وشكل آخر إذا وقع الحرف منفصلا او مستقلا . بل قد يكون للحرف المتصل شكلان ، شكل إذا وقع في اول الكلمة

وشكل آخر إذا وقع في وسطها ، وتتحقق هذه الاشكال مثلا بحرف العين (ع) فهو على اربعة أشكال (ع) و(ـع) و (عـ) و(ـعـ) . والحرف المتصل في العربية على غاية من الدقة والإيجاز (ﻓ ، ﻗ ، ﻋ ، ﺑ ، ﺗ ، ﻳ ..) .

وإذا كان الحرف متحركاً فحركته في العربية لا تكتب إلا عند اللبس على حين ان الحرف في اللغات الاجنبية ذو حجم واحد في حالتي انفصاله واتصاله ، وليس هو في حال اتصاله بأضأل منه في حال انفصاله ثم إنه إن كان متحركاً فلا بد من كتابة حركته بعده ، وحركته حرف مثله أو حرفان آخران ، فنقول في العربية (مازن) فلا تكتب حركة الزاي على حين نكتب في الفرنسية مثلا Mazen فنضع حرفاً يدل على الحركة ونكتب في العربية (المبارك) فلا نضع لحركة الميم او الراء ما يدل عليها إلا عند الالتباس على حين نكتبها في الفرنسية بزيادة ثلاثة حروف ندل باثنين منها على حركة الميم وبالثالث على حركة الراء (Moubarak) أضف الى ذلك ان الحركة في اللغة العربية - اذا اضطررنا إليها وضعناها فوق الحرف او تحته ، فلم تأخذ حجماً يساوي حجم الحرف او يزيد عليه كما رأينا في غيرها .

وقد نحتاج في اللغة الاجنبية الى حرفين في مقابل حرف واحد في العربية لأداء صوت معين كالخاء (KH) والجيم (DJ) .

ثم إننا لا نكتب من الحروف في العربية إلا ما نحتاج اليه ، أي

ما نتلفظ به ، بل قد نحذف في الكتابة بعض ما نلفظ كما في (لكن) و (هكذا) و (اولئك) . ويندر أن نجد فيها ما يكتب ولا يلفظ إلا لعلة ، وذلك كالواو في (عمرو) ، فانهـا للتفريق بين (عمر) و (عمرو) ، ولذلك فهي تحذف في حالة النصب فنكتب (عمراً) بـلا واو لأن منع (عمر) من التنوين دل على أن المنون غيرها . على حين أننا نكتب علامة الجمع في اللغة الفرنسية ولا نلفظها ، ونكتب في الانكليزية أيضاً حروفـاً لا يمرّ اللسان عليها في النطق ، كما في كلمة (right) مثلا التي نسقط عند النطق بها حرفين من حروفها نثبتهما في كتابتها.

وفي العربية إشارة نسميها (الشدة) ، نضعها فوق الحرف لندل على ان الحرف مكرر أو مشدد ، أي أنه في النطق حرفان، وبذلك نستغني عن كتابته مكرراً ، على حين أن الحرف المكرر في النطق في اللغة الأجنبية مكرر أيضاً في الكتابة على نحو (Frapper) و (recommandation) .

ونحن في العربية قد نستغني كذلك بالإدغـام عن كتابة حروف بكاملها ، وقد نلجأ الى حذف حروف فنقول ونكتب (عم) عوضاً عن (عن ما) و (مم) عوضاً عن (من ما) (بم) عوضاً عن (بما) ومثلها (لم) على حين نقول في الانكليزية مثلا :

What with ? في مقابل : بم ؟

و What for ? أو : why ? في مقابل : لم ؟

و : ?what about	في مقابل : عمّ ؟
و : ? when until	في مقابل : إلام ؟
و : ? what of	في مقابل : مم ؟

وأما الإيجاز في الكلمات فراجع الى ان العربية ذات أصول يشتق منها ، وليست لغة تركيبية تعتمد على إضافة حروف في أول الكلمة او آخرها على نحو ما نعرف في غيرها من سوابق (préfixe) ولواحق (suffixe) . والاصول التي تشتق العربية منها ثلاثية في أكثرها ، وأقصى ما تصل اليه قبل الزيادة خمسة ، وقد تصل بعدها الى سبعة . ولو أخذنا عدداً من الكلمات العربية ونظرنا في عدد حروفها وحروف الالفاظ التي تقابلها في لغة اجنبية لرأينا الفرق واضحاً بين اللغتين ، وإليك مثلا هذه الكلمات :

العربية	حروفها[1]	الفرنسية	حروفها	الانكليزية	حروفها
أم	٢	Mère	٤	Mother	٦
أب	٢	Père	٤	Father	٦
أبوة	٤	Paternité	٩	Fatherhood	١٠
أخ	٢	Frère	٥	Brother	٧

(١) المراد عدد الحروف التي نكتبها .

أخت	٣	Sœur	٥	Sister	٦
أخوة	٤	Fraternité	١٠	Brotherhood	١١
أسرة	٤	Famille	٧	Family	٦
ضوء	٣	Lumière	٧	Light	٥
نشاط	٤	Activité	٨	Activity	٨
نمو	٣	Development	١١	Development Progress	١١ ٨
تطور	٤	évolution	٩	Evolution	٩
تربية	٥	éducation	٩	Education	٩
توصية	٥	recommandation	١٤	recommendation	١٤

إن عدد الحروف في كل من هذه الكلمات العربية أقل منه في نظيرها ، وأنت إذا وازنت بينها وبين نظائرها في حالتي التعريف والتنكير أيضاً كان الحكم بالإيجاز الى جانبها ، ذلك أن أداة التعريف في العربية متصلة بالكلمة وليست منفصلة عنها مثل (la) و (le) في الفرنسية و (the) في الانكليزية ، وكتابة الحرف المتصل أسهل وأسرع من كتابة المنفصل . وأما أداة التنكير فالعربية مستغنية عنها بحركة نضعها أحياناً فوق الحرف وهي التنوين ، على حين أنها في الفرنسية (un) للمذكر و (une) للمؤنث ، ويكفي في العربية ألا تدخل حرف التعريف على الكلمة حتى تعتبر نكرة ، وبهذا

كانت العربية تستثمر وجود الأداة كما تستثمر عدمها ، فوجود (الـ) مثلًا يدل على التعريف ، وعدمها يدل على التنكير دون الحاجـــة الى أداة للتنكير .

واذا انتقلنا من المفرد الى المثنى وجدنا للعربية في هذا الباب خصائص تميزها ، وتجعلها فوق غيرها من اللغات ، فهي أولاً ليست كاللغات التي تهمل حالة التثنية لتنتقل من المفرد الى الجمع ، وهي ثانياً لا تحتاج للدلالة على هذه الحالة الى أكثر من إضافـــة حرفين الى المفرد ليصبح مثنى (الباب ـ البابان ، البابين) على حين أنـه لابد في الفرنسية والانكليزية من ذكر العدد مع ذكر الكلمة وذكر علامة الجمع بعد الكلمة ، فنقول في الفرنسية (les deux portes) ونقول في الانـكليزية (the two doors) ،

وأما في حالة التركيب فالجملة أو التركيب في العربية قائم أصلًا على الدمج او الإيجاز ، ففي الاضافـة يكفي أن تضيف الضمير الى الكلمة وكأنه جزء منها فتقول (كتابه) و (منزلهم) ، على حين نقول في الفرنسية مثلًا (son livre) و (leur maison) . وأما في إضافة الشيء الى غيره فيكفي في العربية أن نضيف حركة اعرابية أي صوتاً بسيطاً الى آخر المضاف اليه فنقول : كتاب التلميذ ومدرسة التلاميذ ، على حـــين نستعمل في الفرنسية أدوات خاصة لذلك فنقول (le livre de L'éléve) و (l'école

(des éléves) . وفي استعمال الحركات في العربية ضرب من الإيجاز سنشير إليه في البحث القادم عن حركات الاعراب . وأما في الإسناد ، فيكفي في العربية أن تذكر المسند والمسند إليه وتترك لعلاقة الاسناد العقلية المنطقية أن تصل بينهما بلا رابطة ملفوظة أو مكتوبة ، فتقول مثلا (أنا سعيد) على حين ان ذلك لا يتحقق في اللغة الفرنسية او الانكليزية ، ولا بد لك فيهما مما يساعد على الربط فتقول (Je sui heureux) و (I am happy) ، وتستعمل هاتان اللغتان لذلك طائفة من الافعال المساعدة مثل (étre و avoir) في الفرنسية و (to be و to have) في الانكليزية .

كما أن الفعل نفسه يمتاز في العربية باستتار الفاعل فيه حيناً وكونه جزءاً منه حيناً آخر ، فنقول (أكتب وتكتب) مقدرين الفاعل المستتر ، ونقول (كتبت وكتبا وكتبوا) فنصل الفاعل بالفعل وكأنه حرف من حروفه ، فلا نحتاج الى البدء به منفصلاً دوماً مقدماً على الفعل كما هو الأمر في الفرنسية (Je و tu و il ... nous) وفي الانكليزية (I, you, they) . وكذلك عند بناء الفعل للمجهول ، يكفي في العربية أن تغير حركة بعض حروفه فتقول (كُتب ، قُرىء) على حين تقول في الفرنسية مثلاً (a été écrit) وفي الانكليزية (it was read) .

وتختصر العربية بعض الافعـال فاذا هي حروف ، كقولك في امر المخاطب المذكر : (ف) من وفي يفي ، و (ع) من وعى يعي ، و (ق) من وقى يقي ، فكل من هذه الحروف إنما يشكل في الحقيقة جملة تامة ، لأنه فعل وقد استتر فيه فاعله وجوباً ، فهل رأيت في غير العربية إيجازاً يجعل الجملة قائمة على حرف ؟!

وفي العربية ألفاظ يصعب التعبير عن معانيها في لغة أخرى بمثـل عددها من الألفاظ كأسماء الأفعال ، وكاف التشبيه ، وحرف الاستقبال وإليك مثلاً من ذلك في العربية والانـكليزية :

نقول في العربية : هيهات . ونقول في الانـكليزية it is too far

شتان : there is a great difference

هو قوي كالأسد : he is as strong as a lion

سأذهب : I shall go

سيذهب : he will go

وانظر الى بعض أساليب اللغة الانـكليزية في النفي ، كم يكلفنـــا إدخال الفعل بعد الضمير ، ثم إدخال أداة النفي بين الفعل المساعـــد والفعـــل المنفي ، فنحن نقول مثلاً : I did not meet him على حين نعبر عن كل ذلك في العربية بقولنـــا : لم أقابله . ونقول : I will never meet him في مقابل : لن أقابله .

ولست أدري بعد كل هذا كيف تنعت العربية بقصورها عن مجاراة غيرها في القدرة على الإيجاز ؟!

أما الايجاز في اللغة المكتوبة ، فغير خاف أن صفة الايجاز في اللغة المنطوقة لابدّ أن تصبح صفة لها وهي مكتوبة ؛ إذ كما تأخذ اللغة قدراً أقل من اللفظ ، كذلك تأخذ حيّزاً أقل من الورق ، على أن تتماثل الحروف حجماً كما تماثلت الاصوات ، ولا يصح أن نوازن بين العربية وغيرها في هذا الباب إلا إذا تساوت الشروط الفنية بين اللغتين في الحروف وأبعادها ، وفي عدد الفواصل بين الكلمات ، والمسافات بين الاسطر . ولابدّ في هـــذا الباب من استبعاد كل ما يخطر على البال من أنواع الخطوط العربية التزيينية التي يُلجأ فيها الى مد الحرف وتخطيطه أو إطالته وإلى الاكثار من الفواصل والأبعاد طلباً للزخرفة أو الجمال .

إن الموازنة يجب أن تكون بين لغتين تتساويان :

١ً – في حجم الحرف .

٢ً – في الصفات الفنية للكتابة أو الطباعة .

٣ً – في قدرة الكاتبين ، كل واحد منهما في لغته ، على التعبير .

٤ً – في استعمال الاصطلاحات والرموز .

فاذا اختل شرط من هذه الشروط كانت الموازنة فاسدة لا عدل فيها . إننا نستطيع مثلاً أن نكتب سبعين كلمة باللغة الانكليزية في حيّز من

الورق لا يتسع لأكثر من أربعين كلمة عربية مكتوبة بحرف أكبر ، ولو بدّلنا الحروف لاستطعنا العكس أيضاً ، ولكن هذا لايدل على أن إحدى اللغتين أكثر إيجازاً من الاخرى . ان سورة الفاتحة من القرآن الكريم تتألف من (٣١) لفظة [١] على حين أن ترجمتها استغرقت (٧٠) لفظة [٢] ، فهل يعقل أن يتساوى حيّز الالفاظ الاحدى والثلاثين وحيّز الألفاظ السبعين اذا تساوت الحروف في الحجم والمسافة والفاصلة بين الكلمات والبعد بين الأسطر ؟ كما أنه غير صحيح أن نوازن بين لغتين تكتب احداهما الأسماء كاملة ، وترمز الأخرى لكل منها بحرف أو حرفين، كأن نقول في الانكليزية مثلاً (U.N) ونقول في العربية (الأمم المتحدة) . أو أن نقول : (U.S.A) ونقول في مقابلها : الولايات المتحدة الامريكية ، وهكذا في سائر أسماء المنظمات الدولية من صحية وثقافية وغيرها .

ان استعمال الرمز يجب أن يعمَّم في العربية ، فكما أخذنا نقول (ص . ب) لصندوق البريد و (ب . ع) للبريد العسكري و (ج . ع .س) للجمهورية والعربية السورية، كذلك يجب أن نشير الى سائر الاسماء الدولية التي يُستعمل لها الرمز في اللغات الاجنبية برمز يقابله في اللغة العربية ..

فاذا تساوت الشروط ، وتماثلت الصفات بين اللغات ، استقامت الموازنة وظهرت الحقيقة وعرف للعربية فضلها . يقول الدكتور يعقوب بكر :

---

(١) وذلك شامل للبسملة وحروف العطف والنفي .

(٢) انظر القرآن الكريم مع ترجمته لمولاي محمد علي . انكلترا ١٩١٧ .

« اذا ترجمنا الى العربية كلاماً مكتوباً باحدى اللغات الاوربية كانت الترجمة العربية أقل من الاصل بنحو الخمس أو أكثر[1] . »

★ ★ ★

(١) العربية لغة عالمية (نشر الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بالقاهرة ١٩٦٦) .

(٢)

حركات الإعراب

معناها وقيمتها في لغة العرب

الحركات التي هي الفتحة والضمة والكسرة أصوات بسيطة قصيرة مقابلة في اللغة العربية لحروف المد التي هي الألف والواو والياء . أو هي أبعاضها كما يقول بعض النحاة .

وهذه الحركات في اللغة العربية قسمان : قسم يدخل في بنية الكلمة لا يتحول ولا يتبدل ، كحركة الجيم في جعفر وجميل ، وكحركة الراء في فرح وحركات أواخر المبنيّات . وقسم ينفصل عن الكلمة ، يدخل عليها ويتحول عنها ، ويتبدّل تبعاً للوظيفة النحوية للكلمة في الجملة كحركة الدال في حضر زيد وكتاب زيد ...

وتتميز اللغة العربية – فيما تتميز به – بحركات الاعراب التي هي في حقيقة الأمر ضرب من ضروب الايجاز ، اذ يدل بالحركة على معنى جديد غير معنى المادة اللغوية للكلمة ، وغير معنى القالب الصرفي لها ، وهو معناها أو وظيفتها النحوية كالفاعلية أو المفعولية . . . فنحن حين نقول : جاء صاحب الدار ، فانما ندل بضم الباء على معنى غير المعنى اللغوي المستفاد من مادة (صحب)

وغير معنى اسم الفاعل المستفاد من صيغة (صاحب) وهو معنى اسناد المجيء الى الصاحب أي معنى الفاعلية ، وذلك هو المعنى المستفاد من الضم .

وهكذا فحركات الاعراب ليست شيئاً زائداً أو ثانوياً ، وهي لم تدخل على الكلام اعتباطاً ، وانما دخلت لأداء وظيفة أساسية في اللغة إذ بها يتضح المعنى ويظهر ، وعن طريقها نعرف الصلة النحوية بين الكلمة والكلمة في الجملة الواحدة .

وليس معنى « الاعراب » في اللغة ببعيد عن هذا المعنى الاصطلاحي الذي أشرنا إليه ؛ فالاعراب لغةً: الإفصاح ، ويقال أعرب الرجل عن حاجته إذا أبان عما في نفسه ، ومنه في الحديث قوله عليه الصلاة والسلام : « الثيب تعرب عن نفسها ، والبكر رضاها صمتها[1] » فالاعراب لغة الافصاح عما في النفس ، والاعراب اصطلاحاً هو الاعراب عن المعاني بالحركات الدالة عليها .

ولما كانت وظيفة النحو تعيين صلة الكلمات بعضها ببعض في الجملة الواحدة بحسب المعنى المراد ، وكانت حركات الاعراب في العربية تقوم بالجزء الأكبر من تلك الوظيفة فقد طغى معنى الاعراب على النحو كله حتى سمي النحو بعلم الاعراب ! وليس هذا التعريف صحيحاً على ما نرى ، لأن النحو أوسع من الاعراب وأشمل . وقد لفتت ظاهرة الإعراب إليها الكثير من الباحثين قديماً وحديثاً ، فدرسوها وحاولوا شرحها وتعليلها .

---

(١) رواه احمد في مسنده ٤ : ١٩٢ وابن ماجه في سننه ١ : ٦٠٢

أما المستشرقون فلعلّ أبرز آرائهم في الاعراب ما ذكره « Wright » من أن حركات الاعراب بقايا للواحق اندثرت وبقي بعضها ، وحاول أن يهتدي مع القائلين برأيه إلى أصول حركات الاعراب عن طريق المقارنة بين اللغات السامية (١) .

وأما المحدثون من علمائنا فلعل أوسع ما كتبوه عن الاعراب ما جاء به صاحب « إحياء النحو » وقد ظهر هذا الكتاب سنة ١٩٥١ وقال صاحبه بصدد حركات الاعراب :

« ألهذه العلامات الاعرابية معان تشير إليها في القول ؟ أتصور شيئاً مما في نفس المتكلم وتؤدي به إلى ذهن السامع ؟ وما هي هذه المعاني ؟

والعربية لغة القصد والايجاز - أتلتزم علامات الاعراب على غير فائدة في المعنى ، ولا أثر في تصويره ؟ لقد أطلت تتبع الكلام ، أبحث عن معان لهذه العلامات الاعرابية ، ولقد هداني الله - وله خالص الإخبات والشكر - إلى شيء أراه قريباً وواضحاً ، وأبادر إليك الآن بتلخيصه :

١ - إنّ الرفع علم الاسناد ، ودليل أن الكلمة يُتحدث عنها .

٢ - إن الجر علم الاضافة ، سواء أكانت بحرف أم بغير حرف .

---

(1) Lectures of Comperative grammar of the Semetic Languages Wright , Cambridg 1890

وانظر التطور النحوي للغة العربية لبراجستراسر .

٣ – إن الفتحة ليست بعلَم على إعراب ، ولكنها الحركة الخفيفة المستحبة التي يحب العرب أن يختتموا بها كلماتهم ما لم يلفتهم عنها لافت ، فهي بمنزلة السكون في لغتنا الدارجة .

٤ – إن علامات الاعراب في الاسم لا تخرج عن هذا إلا في بناء أو نوع من الاتباع ، وقد بيناه أيضاً .

فهذا جماع أحكام الاعراب ، ولقد تتبعت أبواب النحو بابا بابا ، واعتبرتها بهذا الأصل القريب اليسير ، فصح أمره واطرد فيها حكمه »[1] .

ويستطرد صاحب الاحياء الى ذكر التنوين ودلالته فيقول : « ثم زدت تتبع هذا الاصل فتجاوزت حركات الاعراب ، ودرست التنوين على أنه منبيء عن معنى في الكلام ، فصح لي الحكم واستقام ، وبدلت قواعد « مالاينصرف » ووضعت للباب أصولاً أيسر وأنفذ في العربية مما رمم النحاة للباب . ولا أؤجل عنك إجمال هذه الأصول أيضاً :

١ – إن التنوين علم التنكير .

٢ – لك في كل علم ألا تنونه ، وإنما تلحقه التنوين إذا كان فيه حظ من التنكير .

٣ – لا تحرم الصفة التنوين حتى يكون لها حظ من التعريف[2] . »

---

(١) احياء النحو للاستاذ ابراهيم مصطفى : المقدمة هـ – ز

(٢) احياء النحو : المقدمة ز – ح .

يشرح المؤلف في كتابه ما أوجزه في هذه المقدمة من الأصول ، ويدرس علامات الاعراب على أنهـا دالّة على المعاني [١] .. كما يفصّل القول في التنوين ليثبت أنه في النكرة مقابل لـ (الـ) في المعرفة [٢] .

ويعود صاحب الاحياء في كتابه الى القدماء يسألهم آراءهم ويستهدي بها ، فينقل رأي محمـد بن المستنير المعروف بقطرب ، وخلاصته أن العرب أعربت كلامها لأن الاسم في حال الوقف يلزمه السكون ، فجعلوا كلامهم في الوصل محركاً حتى لا يبطئوا في الادراج ، وعاقبوا بين الحركة والسكون ، وجعلوا لكل واحد أليق الأحوال به ، ولم يلتزموا حركة واحـدة لأنهم أرادوا الاتساع فلم يضيقوا على أنفسهم وعلى المتكلم بحظر الحركات إلا حركة واحدة [٣] .

ثم يرد هذا الرأي المفضي إلى إبطال الاعراب لانه يوسع على القائل ويترك له حرية تحريك آخر الكلمة بما يشاء .

ولا يكتم صاحب إحياء النحو أن نحوياً متقدماً هو أبو القاسم الزجاجي (المتوفى سنة ٣٣٧ هـ) سبق له أن قال : « إن الاسمـاء لما كانت

---

(١) الاحياء : ٤٨ وما بعدها .

(٢) الاحياء : ١٦٤ ومابعدها .

(٣) نقل صاحب الاحياء رأي قطرب عن الأشباه والنظائر ١ : ٢٦١ وأصله في ايضاح علل النحو للزجاجي : (٧٠ – ٧١ .) كما سترى

تعتريها المعاني وتكون فاعلة ومفعولة ومضافة ،ولم يكن في صورها وأبنيتها أدلة على هـذه المعاني ، جعلت حركات الاعراب تنبىء عن هـذه المعاني وتدل عليها ، ليتسع لهم في اللغة ما يريدون من تقديم وتأخير عند الحاجة [1]، ويتبع صاحب الاحياء ذلك بقوله : « وهذا الرأي كالاصل لما ذهبنا إليه ، وقد بينه الزجاجي في كتاب له يسمى « إيضاح علل الاعراب » ولم يقع لنا منه إلا ما نقلناه هنا وأخـذناه عن كتاب الاشباه والنظائر للامـام السيوطي[2] . »

ولعلنا نستطيع اليوم أن نقول - بعد أن عرفنا كتاب ايضاح علل النحو للزجاجي[3] - إنه لو وقع هذا الكتاب لصاحب الاحياء لوجد فيه الاصل كل الاصل لما يقول ، إذ ليس في إحياء النحو من حيث المبدأ شيء جديد يزيد على ما جاء به الزجاجي ، على أن صاحب احياء النحو أفرد الكتاب للفكرة وأعقبها بتطبيقات عملية على أبواب معينة من النحو .

إذاً لقد عرف القدماء ظاهرة الاعراب معرفـة دراسة وبحث وتأليف ، ووقفوا عند حركات الاعراب مفسّرين، فقال ابن جني (٣٩٢ هـ) :

---

(١) احياء النحو : ٥٢ والاصل في ايضاح الزجاجي كما سيأتي مفصلا .

(٢) الاحياء : ٥٢ .

(٣) حققناه ونشرناه في القاهرة سنة ١٩٥٩ .

الإعراب هو الإبانة عن المعاني بالالفاظ [1] . وقال ابن فارس (٣٩٥ هـ) « من العلوم الجليلة التي خُصَّت بها العرب الاعراب الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ ، وبه يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام . ولولاه ما ميز فاعل من مفعول، ولامضاف من منعوت، ولا تعجب من استفهام.. [2] » وقال في موضع آخر : « فأما الاعراب فبه تميز المعاني ويوقف على أغراض المتكلمين ؛ وذلك أن قائلا لو قال : (ما أحسنْ زيدْ) غيرَ معرب و (ضرب عَمْرو زيدْ) غير معرب، لم يوقف على مراده ، فاذا قال : ما أحسن زيداً، أو ما أحسنَ زيدٌ ، أو ما أحسنُ زيدٍ ، أبان بالاعراب عن المعنى الذي أراده ، وللعرب في ذلك ما ليس لغيرها ، فهم يفرقون بالحركات وغيرها بين المعاني [3] . »

والزجاجي أسبق المتقدمين وأطولهم نفساً في الموضوع ، فلقد وقف عند الاعراب وخص كل مسألة من مسائله بباب من كتابه « الإيضاح » فعقد باباً للقول في الكلام والاعراب أيهما أسبق [4] ، وباباً للقول في الاعراب

---

(١) الخصائص ١ : ٣٥ .

(٢) الصاحبي : ٤٢ .

(٣) الصاحبي : ١٦١ .

(٤) الايضاح : ٦٧ .

لم دخل في الكلام [1] ؟ وهو الباب الذي يعنينا خاصة ، وباباً للقول في الاعراب أحركة هو أم حرف [2] ؟ وباباً للقول في الاعراب لمَ وقع في آخر الاسم دون أوله ووسطه [3] ؟ وباباً للقول في المستحق للاعراب من الأسماء والأفعال والحروف [4] ، وباباً للقول في الفرق بين النحو واللغة والاعراب والغريب [5] ، وباباً للقول في معنى الرفع والنصب والجر من طريق اللغة [6] ، وباباً للقول في علة دخول التنوين في الكلام [7] ..

وإذا عدنا الى باب القول في الاعراب لم دخل الكلام ؟ وهو البـــاب الذي نقل صاحب الاحيـــاء جزءاً منه عن الاشباه والنظائر – مع أن السيوطي في الاشباه والنظائر نقـــل الباب كاملاً ! ! – وجدنا الزجاجي يقول : « ان الاسمـــاء لما كانت تعتورها المعاني فتكون فاعلة ومفعولة ومضافاً اليها ، ولم تكن في صورها وأبنيتها أدلة على هذه المعاني بل كانت مشتركة ، جعلت حركات الاعراب فيها تنبىء عن هذه المعاني ، فقالوا : ضرب زيد عمراً ، فدلوا برفع زيد على أن الفعل له ، وبنصب عمرو على أن الفعل واقع به . وقالوا ضُرب زيـــد ، فدلوا بتغيير أول الفعل ورفع زيد على أن الفعل لما لم يسمَّ فاعله ، وأن المفعول

---

(١) الايضاح : ٦٩ . (٢) الايضاح : ٧٢ . (٣) الايضاح : ٧٦ .
(٤) الايضاح : ٧٧ . (٥) الايضاح : ٩١ . (٦) الايضاح : ٩٣ .
(٧) الايضاح : ٩٧ .

قد ناب منابه ، وقالوا : هذا غلام زيد ، فدلوا بخفض زيد على إضافة الغلام إليه . وكذلك سائر المعاني جعلوا هذه الحركات دلائل عليها ليتسعوا في كلامهم ، ويقدّموا الفاعل ان أرادوا ذلك أو المفعول عند الحاجة الى تقديمه ، وتكون الحركات دالة على المعاني [١] » .

وهكذا يتبين لنا أن الزجاجي سبق الى القول لا بدلالة الحركات على المعاني فقط بل بمعاني هذه الحركات،إذ أليس قوله (انهم دلّوا بخفض زيدفي قولهم هذا غلام زيد على اضافة الغلام اليه) يعني أن الكسرة علَم الاضافة ؟؟ بل لقد ذكر أنه رأي لجميع النحويين . والعجيب بعد ذلك أن يكون الزجاجي - في الباب نفسه - قد فطن لقول قطرب ومخالفته لرأيه فأورد اعتراض قطرب ورد عليه بأحسن مما رد عليه المتأخرون . قال الزجاجي : « هذا قول جميع النحويين إلا قُطرُباً فانه عاب عليهم هذا الاعتلال ، وقال : لم يعرب الكلام للدلالة على المعاني والفرق بين بعضها وبعض ، لأنا نجد في كلامهم أسماء متفقة في الاعراب مختلفة المعاني ، وأسماء مختلفة الاعراب متفقة المعاني . فمّا اتفق اعرابه واختلف معناه قولك : إن زيداً أخوك ، ولعل زيداً أخوك ، وكأن زيداً أخوك . اتفق اعرابه واختلف معناه . ومما اختلف اعرابه واتفق معناه قولك : ما زيد قائماً ، وما زيد قائم ، اختلف اعرابه واتفق معناه ... فلو كان الاعراب إنما دخل الكلام

---

(١) الايضاح ٦٩ — ٧٠ .

للفرق بين المعاني لوجب أن يكون لكل معنى اعراب يدل عليه لايزول إلا بزواله . ثم قال : إنما اعربت العرب كلامها لأن الاسم في حال الوقوف يلزمه السكون للوقف ، فلو جعلوا وصله بالسكون أيضاً لكان يلزمه الاسكان في الوقف والوصل ، وكانوا يبطئون عند الادراج، فلما وصلوا وأمكنهم التحريك جعلوا التحريك معاقباً للاسكان ليعتدل الكلام . ألا تراهم بنوا كلامهم على متحرك وساكن ، ومتحركين وساكن ، ولم يجمعوا بين ساكنين في حشو الكلمة ولا في حشو بيت ، ولا بين أربعة أحرف متحركة ، لانهم في اجتماع الساكنين يبطئون ، وفي كثرة الحروف المتحركة يستعجلون وتذهب المهلة في كلامهم ، فجعلوا الحركة عقب الاسكان .

قيل له : فهلّا لزموا حركة واحدة لأنها مجزئة لهم إذا كان الغرض إنما هو حركة تعقب سكوناً ؟

فقال : لو فعلوا ذلك لضيقوا على أنفسهم فأرادوا الاتساع في الحركات وألا يحظروا على المتكلم الكلام إلا بحركة واحدة .

هذا مذهب قطرب واحتجاجه . وقال المخالفون له رداً عليه : لو كان كما زعم لجاز خفض الفاعل مرة ، ورفعه أخرى ونصبه ، وجاز نصب المضاف اليه ، لأن القصد في هذا انما هو الحركة تعاقب سكوناً يعتدل به الكلام . وأي حركة أتى بها المتكلم أجزأته فهو مخيَّر في ذلك . وفي هذا فساد للكلام ، وخروج عن أوضاع العرب وحكمة نظام كلامهم . واحتجوا

لما ذكره قطرب من اتفاق الاعراب واختلاف المعاني واختلاف الاعراب واتفاق المعاني في الأسماء التي تقدم ذكرها بأن قالوا انما كان أصل دخول الاعراب في الأسماء التي تذكر بعد الأفعال ، لأنه يذكر بعدها اسمان أحدهما فاعل والآخر مفعول ، فمعناهما مختلف فوجب الفرق بينهما ، ثم جعل سائر الكلام على ذلك . وأما الحروف التي ذكرها فمحمولة على الأفعال ، ولكل شيء مما ذكره علة تمر بك في بابه إن شاء الله تعالى [١] . »

ولا يقف الزجاجي ببحثه عند هذه الحركات بل يتعداها كما تعداها صاحب إحياء النحو إلى الحديث عن التنوين فيذكر في (باب ذكر علة دخول التنوين في الكلام ووجوهه) أن التنوين يدخل في الكلام لثلاثة معان :

الأول : دخوله للفرق بين المتمكن الخفيف من الأسماء وبين الثقيل الذي ليس بتمكن .

والثاني : دخوله ليكون عوضاً من محذوف من الكلمة .

والثالث : دخوله ليكون فرقاً بين الاسماء المعرفة والنكرة في بعض الأسماء خاصة .

ويذكر في هذا الباب الاسماء الاعجمية المنتهية بـ (ويه) ثم يقول: فاذا أرادوا تنكيرها نوّنوها .. فجعلوا التنوين دليلًا على المنكور منها ... وكذلك جميع الاصوات والحكايات والزجر يفرق بين معرفتها ونكرتها بالتنوين [٢] . »

---

(١) الإيضاح ٧٠ – ٧١ (٢) الإيضاح ٩٧–٩٩ .

ويتضح لنا مما سبق أن القدماء وقفوا عند حركات الاعراب وفسّروا سبب دخولها في الكلام ، ووقفوا عند التنوين أيضاً فاستقرؤوا مواضع دخوله وصنفوا معانيه بحسب تلك المواضع ، ولم يكن الزجاجي وحيداً في هذا المجال وانما كان كثيرون ممن سبقوه وممن لحقوا به يعنون بما عني به ، وإن كان له الفضل في نقل آراء السابقين وتسجيلها لهم في مؤلفاته . ولا شك أن صاحب « إحياء النحو » ومن ينهب مذهبه متأثرون بآراء القدماء التي اعترفوا بأنها كانت كالاصول لآرائهم ومذاهبهم .

وذهب بعض الباحثين المحدثين في تعليل الظاهرة الاعرابية الى غير ما ذهب اليه صاحب « إحياء النحو » فادّعوا أن الاعراب قصة مختلقة ، وأن النحاة وضعوها بمهارة وإحكام .

قال الدكتور ابراهيم أنيس : « ما أروعها قصة ! لقد استمدت خيوطها من ظواهر لغوية متناثرة بين قبائل الجزيرة العربية ، ثم حيكت وتمّ نسجها حياكة محكمة في أواخر القرن الاول الهجري أو أوائل الثاني ، على يد قوم من صناع الكلام نشأوا وعاشوا معظم حياتهم في البيئة العراقية ، ثم لم يكد ينتهي القرن الثاني الهجري حتى أصبح الاعراب حصناً منيعاً ، امتنع حتى على الكتّاب والخطباء والشعراء من فصحاء العربية ، وشق اقتحامه إلا على قوم سُمّوا فيما بعد بالنحاة » (١)

---

(١) من أسرار اللغة: ١٤ .

ولعل هذا الرأي يذكرنا أول ما يذكرنا بـا قاله بعض المستشرقين وتبناه بعض أتباعهم بصدد الشعر الجاهلي .. فهو أيضاً قصة حاكها قوم من صناع الاوزان والقوافي سُمّوا فيا بعد بالرواة !.

على أننا إذا تركنا «روعة الأصالة» في هذا الرأي أو هذين الرأيين جميعاً فاننا نبادر الى القول إن الذين زعموا اختلاق النحاة لقصة الاعراب لم يستطيعوا أن يجعلوهاقصة لا أصل لها، بل أجبروا على الاعتراف بأنها كانت تستمد خيوطها من« ظواهر لغوية متناثرة بين قبائل الجزيرة العربية» وحسبنا بهذا اعترافاً من الزاعمين بأن النحاة جمعوا هذه الظواهر اللغوية المتناثرة بين القبائل العربية وصنفوها وخرجوا منها بصناعة الاعراب .

ولن نطيل الوقوف الآن عند نشأة الظاهرة الاعرابيــــة وتاريخها فان لذلك موضعاً آخر، ولكننا نقف لنسأل أصحاب هذا الرأي : ما مدلول الحركات الاعرابية؟ وماتفسيرها؟ وفي أي أساس صنفها أصحابها أو مختلقوها؟

أما مدلول الاعراب عنـــد صاحب (الأسرار) فلا شيء؛ لأن «حركاتنا الاعرابية ليست رموزاً لغوية تشير الى الفاعلية والمفعولية وغير ذلك كما يظن النحاة[1] . «ويرى أنه اتجه» في تفسير ظاهرة الاعراب الى رأي جديد له ما يدعمه من نصوص اللغة ومن روايات قديمة .. »

---

(١) من اسرار اللغة : ١٤٢ .

ثم يأتي ليكشف لنا النقاب عن هذا الرأي الجديد .فيقول تحت عنوان « مفتاح السر ظاهرة الوقوف » : يظهر ـ والله أعلم ـ أن تحريك أواخر الكلمات كان صفة من صفات الوصل في الكلام شعراً أو نثراً ، فاذا وقف المتكلم أو اختتم جملته لم يحتج الى تلك الحركات، بل يقف على آخر كلمة من قوله بما يسمّى السكون . كما يظهر أن الاصل في كل الكلمات أن تنتهي بهذا السكون، وأن المتكلم لا يلجأ الى تحريك الكلمات إلا لضرورة صوتية يتطلبها الوصل .. »

والغريب في أمر هذا الرأي أولاً أن يوصف بالجدة مع أن صاحبه قال بصدده : « ويشبه هذا الرأي ما نادى به أحد تلاميذ سيبويه وهو الامام محمد بن المستنير المعروف بقطرب المتوفى سنة ٢٠٦ هـ إذ يقول : إنما أعربت العرب كلامها لان الاسم في حال الوقف يلزمه السكون . . الخ وقد وقفنا على هذا الرأي حين نقله الينا الزجاجي منذ قليل[١] ، ونستطيع أن نقول إن الرأيين في حقيقة أمرهما رأي واحد ليس فيهما قديم وجديد ، ولا مشبه ومشبه به .

والغريب في أمر هذا الرأي ثانياً أن صاحبه لم يفعل كما فعل صاحب إحياء النحو حين حاول الرد على قطرب ، ولم يفعل كما فعل الزجاجي

---

(١) سبق أن ذكرنا هذا الرأي مفصلاً في ص ٨١

حين أورد الحجج التي ردّ بها العلماء على قطرب ، ولكنه ذكر الرأي دون الاعتراض عليه ، ثم تبناه وحاول ان يجدللمشكلة المتوهّمة حلًا عن طريق ظاهرة الوقف فناقش هـذه الظاهرة نقاشاً طويلا انتهى منه الى فصل عنوانه « ليس للحركة الاعرابية مدلول . » وهو يقول فيه : « لم تكن تلك الحركات الاعرابية تحدد المعاني في أذهان العرب القدماء كما يزعم النحاة ، بل لا تعدو أن تكون حركات يحتاج اليها في الكثير من الاحيان لوصل الكلمات بعضها ببعض »[1] ثم يحاول أن يبرهن على صحّة هذا الرأي بأمثلة كان قطرب المتوفى سنة ٢٠٦ ﻫ قد أتى بمثلها وبخير منها حين تحدث عما اختلف اعرابه واتفق معناه وعما اتفق اعرابه واختلف معناه[2] .

ثم إن صاحب « الأسرار » يعزو الرأي القائل بأن للحركات الاعرابية مدلولاً الى صاحب الاحياء لا الى أصحابه القدماء فيقول : « وأما ما يشير اليه صاحب إحياء النحو من أن حركات الاعراب ، ولا سيما الضم والكسر ، ترمز لمعنى من المعاني لا يستفاد من الكلام الا بمراعاتها ، فليس يشفع له ما ساقه من أمثلة للتفرقة بين اسم الفاعل واسم المفعول ، أو بين الفعل المبني للمعلوم والمبني للمجهول ،بواسطة الحركات كمافيمكرِم ومكرَم وفي كتب

---

(١) من أسرار اللغة : ١٥٨ .

(٢) انظر ما سبق في ص ٨١ و ٨٢ وقارن الايضاح في علل النحو الزجاجي ص ٧٠ و٧١ بأسرار اللغة ص : ١٥٨ .

وكتب ، وقد أورد صاحب احياء النحو عدة صيغ لايفرق بين معانيها إلا بالحركات ، غير أنه نسي أن الحركة في كل صيغة من هذه الصيغ تعد جزءاً أساسياً في بنية الصيغة ، وشرطاً هاماً للتعرف على تلك الصيغة ، ومثلها كمثل أي كلمة [1] . »

ثم ينتهي الى القول : « ويكفي للبرهنة على ان لا علاقة بين معاني الكلام وحركات الاعراب أن نقرأ خبراً صغيراً في احدى الصحف على رجل لم يتصل بالنحو أي نوع من الاتصال ، فسترى أنه يفهم معناه تمام الفهم مهما تعمدنا الخلط في اعراب كلماته برفع المنصوب ونصب المرفوع أو جرّه ...

فليست حركات الاعراب في رأيي عنصراً من عناصر البنية في الكلمات ، وليست دلائل على المعاني كما يظن النحاة ، بل إن الأصل في كل كلمة هو سكون آخرها ، سواء في هذا ما يسمى بالمبني أو المعرب ، إذ يوقف على كليهما بالسكون ، وتبقى مع هذا أو رغم هذا ، واضحة الصيغة لم تفقد من معانيها شيئاً [2] . »

وبعد أن يطمئن صاحب « من أسرار اللغة » الى أنه هدم رأي المتقدمين من النحاة والمتأخرين ، يقف ليبين كيف تكتسب الكلمات في العربية معاني الفاعلية والمفعولية وغير ذلك ممـــا توهموا أن حركات الاعراب تدل عليه

---

(١) من اسرار اللغة : ١٦٠ .

(٢) المصدر السابق : ١٦٠-١٦١ .

فيقول : « أما الذي يحدد معاني الفاعلية او المفعولية ونحو ذلك مما عرض له أصحاب الاعراب ، فمرجعه أمران :

أولهما : نظام الجملة العربية والموضع الخاص لكل من هـــذه المعاني اللغوية في الجملة ، وثانيهما : ما يحيط بالكلام من ظروف وملابسات ، كتلك التي بحثناها في الفصل الاول [1] .فالباحث في نحو لغة من اللغات يعنى كل العناية بتراكيب الجمل ، وربط أجزائها بعضها ببعض ، ويحاول التعرف على مواضع الفعل منها ، ومواضع الفاعل والمفعول منهــا ، ثم مواضع فضلات الكلام وغيرها من عناصر غير أساسية . فاذا اهتدى لكل هذا ، فقد اهتدى الى الكثير من أسرار اللغة [2] . »

ويتلخص هذا الرأي في ثلاث نقط ، وهي :

١ – ان الحركات في الامثلة التي يوردونها للدلالة على أن للحركة معنى كما هو الامر في مكرِم ومكرَم و كَتَبَ و كُتِبَ ، انما تعد جزءاً أساسياً في بنية الصيغة وشرطاً هاماً للتعرف على تلك الصيغة ، ومثلها مثل أي حركة في أي كلمة .

---

(١) جاء في هذا الفصل وعنوانه « ظروف الكلام وملابساته » :ان من شاء الكشف عن أسرار القواعد اللغوية والتعرف على مناهجها وطرائقها ، يجب عليه ان يقرن البحث في العبارة بالنظر في الظرف اللغوي ، وان يتفهم الكلام الملفوظ على ضوء ما بين المتكلم والسامع من صلة ، وعلى ضوء ما سبق اللفظ من ظروف مهدت للكلام ، وحتمت أن يكون على صورة خاصة ووضع خاص » .

(٢) من اسرار اللغة : ٥ – ٦ .

٢ – ان الدليل على أن لا صلة بين حركات الاعراب والمعاني ، أن من لم يتصل بالنحو أي اتصال يفهم عنا تمام الفهم ، اذا نحن قرأنا له خبراً في احدى الصحف ، وتعمدنا الخلط في اعراب الكلمات .

٣ – ان الذي يحدد معاني الفاعلية والمفعولية وغيرها من هذه المعاني اللغوية أمران :

أ – نظام الجملة العربية، والموضع الخاص لكل من هذه المعاني اللغوية .

ب – ما يحيط بالكلام من ظروف وملابسات رأينا أنها تقوم على معرفة الصلة بين المتكلم والسامع ، ومعرفة السياق والظروف التي مهدت للكلام ورسمت له وضعه الخاص.

ونحن نورد ما يرد به على كل من هذه النقط فنقول :

١ – أما القول بأن الحركات في مثـل مكـرَم ومكرِم ، وكتَب وكتِب ، تعد جزءاً أساسياً في بنية الصيغة وشرطاً هاماً للتعرف على تلك الصيغة ، وأن مثلها مثل أي حركة في أي كلمة ، فهو يدل على قبول الفكرة من حيث المبدأ ، إذ أن ذلك يعني أن من عادة العرب التفريق بين معاني الصيغ أو الألفاظ بحركاتها ؛ فكسروا ما قبل آخر الكلمة للدلالة على اسم الفاعل ، وفتحوه للدلالة على اسم المفعول ، وضموا أول(كتب) وكسروا ما قبل آخره للدلالة على معنى الصيغة الجديدة في البناء للمجهول ، وهم انما فعلوا ذلك في ألفاظ كثيرة،فغيروا حركة الحرف الاول مثلاً لتغيير المعنى

فقالوا : البر بفتح الباء وضمها وكسرها؛ فدلوا بكل منها على معنى مستقل خاص . وقالوا : الحب بفتح الباء وضمها وكسرها أيضاً، ففرقوا بين ثلاثة من المعاني مختلفة . وقالوا : القرى بضم القاف وكسرها لمعنيين مختلفين ..

فدل ذلك على أنهم عبروا بتغيير حركة الحرف الاول من الكلمة عن تغيير معناها . وكذلك فعلوا في الحرف الثاني منها فقالوا : فرح بكسر الراء وفتحها للتفرقة بين فعليتها واسميتها ، وقالوا : أهلك بكسر اللام وضمها ، لمثل ذلك أيضاً . وقالوا : سفر بفتح الفاء وسكونها ، فدلوا بتغيير حركة الفاء على تغيير المعنى من الدلالة على الظهور الى الدلالة على القوم المسافرين ... الخ .

ويحق لنا أن نسأل الآن : كيف نقبل أن تكون حركات الحروف الاولى والوسطى رموزاً للمعاني المختلفة ، ولانقبل مثل ذلك في حركات الحروف الاخيرة ؟ كيف نقبل أن تكون حركة السين مثلا في « حسن » هي الرمز الدال على اسمية الكلمة أو فعليتها ، فاذا فتحناها كانت اسماً ، واذا ضممناها كانت فعلًا ، ولا نقبل أن تكون حركة النون في « أحسن » هي الفارق بين فعلية الكلمة حين نلفظها بالفتح، واسميتها حين نلفظها بالضم .

إننا بعد أن قبلنا الفكرة من حيث المبدأ ، ورأينا العرب تفرق بين المعاني بالحركات ثم رأينا هذه الحركات تقع تارة في الاول وتارة في الوسط ، لا يجوز لنا أن نرفض اطراد المبدأ على الحرف الاخير .

ونحن نسأل: كيف يمكن التفريق بين(ما أحسنَ زيداً) ، في التعجب ، و(ما أحسنَ زيدٌ) ، في النفي ، و(ماأحسنُ زيدٍ ؟) في الاستفهام ، ونحن لم نر في التراكيب الثلاثة شيئاً قد تغير سوى حركة الحرف الاخير في كل من الكلمتين ؟؟

أما أن نعود الى ملابسات القول وظروفه ونعرف الصلةبين القائل والسامع لندرك الفعلمن الاسم،والتعجب من الاستفهام، فأي تعسف هذا الذي نلجأ اليه ؟ وأي إيجاز هذا الذي نتركه ؟ إن بيتاً واحداً من الشعر القـــديم سيضطرك بغيـة تفسيره أن تعود الى أكثر من كتاب ،لتعرف صلة الشاعر بمن يقول فيه ، واذا كان مثل هذا العمل واجباً في تفسير النصوص المعقدة، أو التي قيلت في مناسبات خاصة، فهل يعني أن نعرف ظروف كل جملة وملابساتها لنفهم معناها ؟ بل اذا كانت الحركة الواحدة على الحرف تكفي لمعرفة القول وفهمه،أفليس الأجدر أن نأخذ بها وبدلالتها من أن نعود الى معرفة قصة كاملة لكل جملة ؟ إن قبولنا أن تكون للحركة في كل حرف من حروف الكلمة قيمة لتعد جزءاً أساسياً في بنية الصيغة ، وشرطاً هاماً للتعرف على تلك الصيغة ، وأن مثلها مثل أي حركة في أي كلمـــة إلا إذا وقعت على الحرف الاخير فعندها تفقد كل قيمة ، فلا تعد جزءاً من الكلمة ، ولا تعد شرطاً هامـاً لمعرفة الصيغة ، وانما تصبح مجردة من أيمدلول ، وإذا أردنا تفسيراً لوجودها زعمنا أنهـا لحن صوتي لدرج الكلام ... إن قبولنـا بكل ذلك أمر فيه نظر ، ولايزال يحتاج الى الكثير من التأملوالنظر .

ولعلنا نستطيع أن نقول : نعم إن الحركة لحن صوتي ، ولكنه ليس لحناً لمجرد درج الكلام ، وانما هو لحن صوتي يفرق العرب به بين المعاني . وهذا الصوت إما أن يكون ذا مخرج معين ، فيكون حرفاً ، ومن الحروف تتألف الكلمات ، وواضح هنا أن المعاني تختلف باختلاف هذه الأصوات أي الحروف المعبرة عنها . وإما أن يكون الصوت مدّاً ليناً (كالالف و الياء و الواو الساكنات) .

وبهذه الاصوات وبمواضعها أيضاً يفرقون بين المعاني ؛ إذ لو أخذنا الحرفين (أ) الهمزة و (ن) النون وأدخلنا عليها صوتاً ممدوداً بالفتح لوجدنا أنه إذا كان المد بعد الهمزة فالكلمة (آن) تدل على فعل ماض بمعنى حان ، وإذا كان المد بعد النون فالكلمة (أنا) ضمير للمتكلم . وهل الفرق بين الكلمتين إلا في اختلاف موضع الصوت الممدود فيها ؟ بل إن الفرق بين (إن) الحرف المشبه بالفعل وبين (إنا) الحرف المشبه بالفعل مع اسمها (نا) المدغمة بها ، إنما هو فارق في الصوت ودرجة مدّه فقط ، وهل الحركة إلا صوت قصير أو بعض من حرف المد اللين ؟ أليست (الفتحة) صوتاً كصوت (الالف الساكنة الممدودة) إلا أنها أقصر ؟ وكذلك الضمة والكسرة بالنسبة الى الواو والياء ؟ وما الفرق بين الجد بالفتح والجد بالكسر إن لم يكن فرقاً في الصوت ؟

بل ما الدلالة الصوتية إذاً ، وهي من أوضح أنواع الدلالات المعترف

بهـا ؟ ونعود لنسأل القائلين إن الحركات الاعرابية وسيلة لدرج الكلام : إذا كانت الحركة لازمة لدرج الكلام - إذ تعاقب السكون ، فيعتدل الكلام بين ساكن ومتحرك - فكيف نعدّ السكون في حالة الجزم إعراباً ؟ إن الضمة في قولنا : يكتبُ زيد ، لا لزوم لهـــا لدرج الكلام ؛ إذ نحن نستطيع أن نقول « يكتبْ زَيد » بسكون الباء كما هو الامر حين نجزم فنقول : لم يكتب زيد. فهل حركنا الباء بالضم في الاولى ، وسكناها في الثانية لدرج الكلام مع أن الحرف الذي قبلها وهو التـاء ، والحرف الذي بعدها وهو الزاي ، لم يتغير نوعاً ولا حركة ؟؟

أما كان الاولى بنـــا - على الاقل - أن نقول : إن بعض حركات الاعراب جاءت في بعض المواضع ذات دلالة نحوية ، ثم قيس عليهـا حباً من النحاة بطرد القاعدة والقياس .

وأما كون هذه الحركة - المجحود فضلها عند قطرب وأتباعه - واقعة في أواخر الكلمات ، فقد بين العلماء حكمة العرب فيه ، وقطعوا الطريق على من يحب أن يفرق بين الحركات التي تقع في أوائل الكلمات وأواسطها والحركات التي تقع في أواخرهـا . قال الزجاجي : « قـــال بعض النحويين : الاعراب يدخل في الاسم لمعنى ، فوجب أن يلفظ به ثم يؤتى بالاعراب في آخره . وقال أبو بكر بن الخياط : ليس هذا القول بمرض ، لأنا قد رأينا الاسماء تدخلها حروف المعاني أولاً ووسطاً ، فمـا دخلها

أولاً قولك : الرجل والغلام ، وما دخلها وسطاً ياء التصغير في قولك : فريخ وفليس . ولو كان الامر على ما ذهب اليه قائل هذا القول لوجب ألا يدخل على الاسم حرف معنى إلا بعد كمال بنائـــه . قال : والقول عندي هو الذي عليه جلة النحويين ، أن الاسم يبنى على أبنية مختلفة منها فَعْل وِفعْل وُفعْل وَفعَل ... وما أشبه ذلك من الابنية ،فلو جعـــل الاعراب وسطاً لم يدر السامع أحركة إعراب هي أم حركة بناء ، فجعل الاعراب في آخر الاسم لأن الوقف يدركه فيسكن فيعلم أنه إعراب ، وإذا كان وسطاً لم يكن ذلك فيه .

وقال أبو إسحاق الزجاج : كان أبو العباس المبرد يقول : لم يجعل الاعراب اولاً لأن الأول تلزمه الحركة ضرورة للابتداء ، لأنه لا يبتدأ إلا بمتحرك ، ولا يوقف إلا على ساكن ، فلما كانت الحركة تلزمه لم تدخل عليه حركة اعراب ـ لأن حركتين لا تجتمعان في حرف واحد ـ فلما فات وقوعه أولاً لم يمكن أن يجعل وسطاً ، لأن أوساط الاسماء مختلفة ، لأنها تكون ثلاثية ورباعية وخماسية وسباعية ، فأوساطها مختلفة ، فلما فات ذلك جعل آخراً بعد كمال الاسم ببنائه وحركاته (١) ... وهكذا فالحركات في لغة العرب أصوات قصيرة تقع على الحروف للتفرقة بين معاني الكلمات ، فمنها ما يثبت على حرفه فيكون حركة بناء ، ومنها ما

---

(١) الايضاح في علل النحو : ٧٦ .

يلحق الآخر ويتبدل بتبدل وظيفة الكلمة النحوية في الجملة فيكون إعرابا . وسواء كانت الحركة للبناء او الاعراب فان هذه التفرقة بالحركات بين المعاني ضرب رائع من ضروب الايجاز ، تغنينا فيه الحركة في الكلمة الواحدة عن عدد من الكلمات .

٢ ـ وأما القول إن من لم يتصل بالنحو أي اتصال يفهم عنا تمام الفهم اذا نحن قرأنا له الخبر في الصحيفة وتعمدنا الخلط في الاعراب ... فقول فيه الكثير من المبالغة والمغالطة ، فنحن نسأل أولاً : هل يفهم عنا من لم يتصل بالنحو ولم نعرب له ، كما يفهم عنا المتصل بالنحو اذا نحن قرأنا له معربين ؟ ونسأل ثانياً : هل يجوز أن نعتبر العامي ، أو غير المتصل بالنحو أي اتصال ، هو المقياس الأمثل حتى نبني أحكام لغتنا بحسب فهمه ومستواه ؟ ونحن نسأل ثالثاً ـ وهنا يظهر وجه المغالطة ـ أنحن الآن بصدد البرهنة على ضرورة حركات الاعراب أو عدمها في كلامنا أم أننا بصدد تفسير حركات الاعراب في العربية التي تعارف الناس على أنها العربية .؟

نعم قد يساق هذا المثل تمهيداً للدعوة الى ترك الاعراب ، ولكن كيف يساق بصدد الحديث عن مفهوم حركات الاعراب عند القدماء وصدد الرد على ان لهذه الحركات صلة بالمعاني عندهم ؟ كيف نمثل بانسان من بيئتنا ، ومن أدنى الناس ثقافة فيها ، لنثبت أن الإعراب يوم وضع وتكلم العرب به لم تكن بينه وبين المعاني صلة ؟ ثم أليست حركات

الاعراب رمزاً لحقيقة كامنة وراءها هي تلك المعاني النحوية في الكلام ..
وهل فهمنا للكلام ـ إذا فهمناه ـ من غير حركات الاعراب يعني أن لتلك الحقيقة رمزاً آخر ينبغي ان تدل به عليها . ولعلنا نكفي أنفسنا مؤونة المناقشة اذا نحن لجأنا الى أصحاب اللغة الذين يفهمونها بسلائقهم لنرى أكانوا يفهمونها لولا الحركات ؟ قال الجاحظ : « وقد روى أصحابنا أن رجلا من البلديين قال لأعرابي : كيف أهلِك ؟ قالها بكسر اللام . قال الأعرابي : صلبا . لأنه أجابه على فهمه ولم يعلم أنه أراد المسألة عن أهله وعياله . » « وحكى الكسائي أنه قال لغلام بالبادية : من خلقك ؟ وجزم القاف . فلم يدر ما قال ، ولم يجبه ، فرد عليه السؤال ، فقال الغلام : لعلك تريد من خلقَك . وكان بعض الاعراب إذا سمع رجلاً يقول : نعَم في الجواب ، قال : نعم وشاء ، لأن لغته نعِم . وقيل لعَمْروبن لجأ : قل : إنا من المجرمين منتقمين . قال : إنا من المجرمين منتقمون [1] . فالعرب الذين يفهمون اللغة بسلائقهم إذاً ـ ولو لم يتصلوا بالنحو ـ لا يفهمونها إلا بالحركات . وقد حدَّث كل من عاشرهم بذلك . قال الجاحظ : « وأصحاب هذه اللغة لا يفقهون قول القائل منا : (مكره أخاك لابطل) و (إذا عز أخاك فهن) ومن لم يفهم قولهم هذا لم يفهم قولهم (ذهبت إلى أبو زيد) ، و (رأيت أبي عمرو) . ومتى وجد النحويون أعرابياً يفهم هذا وأشباهه ، بهرجوه ولم يسمعوا كلامه ؛

---

(١) البيان والتبيين ١ : ١٦٣ و ١٦٤

لأن ذلك يدل على طول إقامته في الدار التي تفسد اللغة وتنقص البيان[1] . »

لقد كانوا يمتحنون الأعراب بإلقاء الإعراب الغلط عليهم فاذا قبلوه ضعفوهم وأسقطوهم ، وقيل إن أبا عمرو بن العلاء استضعف فصاحة أبي خيرة العدوي فسأله : كيف تقول حفرت الإران [2] ؟ فقال حفرت إراناً ؛ فقال له أبو عمرو : ألان جلدك يا أبا خيرة حين تحضرت ! وقال الأصمعي : سمعت أبا عمرو يقول : ارتبت بفصاحة أعرابي فأردت امتحانه فقلت بيتاً وألقيته عليه :

كم رأينا من مُسْحَب [3] مسلحب ... صار لحم النسور والعقبان

فأفكر فيه ثم قال : ردّ علي ذكر المسحوب ، حتى قالها مرات ، فعلمت أن فصاحته باقية » .

وهذا نموذج من الاخبار الكثيرة التي انتشرت في البيان والتبيين وفي كتاب الخصائص وغيرهما ، وهي كلها أخبار تؤكد أن العربي السليم الفطرة ما كان يفهم العربية إلا معربة ، وأن علماء اللغة كانوا إذا فهم الاعرابي الكلام الفاسد أو الشاذ أو الملحون يهجوه وأسقطوه وعدوه لين الجلد مضيعاً للسليقة ، فكانوا بذلك أذكى من اللغويين المحدثين الذين إذا فهم العامي

---

(١) البيان والتبيين ١ : ١٦٢و١٦٣ .

(٢) الارة : وهي الحفرة وتجمع على ارين .

(٣) وضعها أبو عمرو عامدا فيها للخطأ ليمتحن الاعرابي ، وصوابها مسحوب .

عندهم لغة ممتلئة باللحن زكوه وأسقطوا الاعراب !! فأين عربية اليوم من عربية الأمس ؟ وأين السليقة اليوم ـ اذا كانت ـ منها بالأمس .

لقد وصل أصحاب السلائق بالامس إلى درجة كادوا لا يفهمون معها عمن انصدع مفصل البيان في ألسنتهم ، فاذا رمتهم ظروفهم في بيئة العامة فزعوا الى اللغويين أو العلماء فزع الغريب عن اللغة الى الترجمان . قال الجاحظ : « رأيت عبداً أسود لبني أسد قدم عليهم من شق اليمامة ، فبعثوه ناطوراً ، وكان وحشياً لطول تغربه بالابل ، وكان لا يلقى إلا الأكرة (الحراثين) فكان لا يفهم عنهم ولا يستطيع إفهامهم ، فلما رآني سكن إليّ ». وسمعته يقول : لعن الله بلاداً فيها عرب ... »

ونحن نسأل بعد كل ذلك ، المثقف المتصل بالنحو ـ لا من لم يتصل بالنحو أي اتصال ـ هل يستطيع أن يفهم قولنا تمام الفهم إذا قلنا : (ما أحسنْ زيدْ) غير معربين ؟ هل يستطيع أن يقول : أأردنا في قولنا النفي أم التعجب أم الاستفهام ؟ لا شك أنه سيقول : إن سياق الكلام ومعرفة الصلة بيننا ، نحن المتكلمين ، وبين زيد ، سيساعده على فهم قولنا ومعرفة ما أردناه من نفي أو تعجب أو استفهام . ونحن نقول : إن حركة بسيطة نحرك بها آخر الكلمة تغنيه عن كل ذلك الاستقصاء الواسع الذي سيسعى وراءه ليدرك معنى جملة قصيرة واحدة [1] .

إن نظرة واحدة إلى هذا الاسم الذي وضعوه علمًا على تلك الحركات وهو «الإعراب» كافية للدلالة على أنها حركات «للإعراب» عمّا في النفس من المعاني . ولست أجد أعجب من أن نفسّر (الإعراب) بـ (لا إعراب) فنقول مع صاحب (من أسرار اللغة) « إنها ليست دلائل على المعاني ، ولا علاقة بين

---

(١) هي جملة واحدة اذا كان الكلام نفياً او استفهاماً ، امـــا اذا كان للتعجب ففيه جملتان .

معاني الكلام وحركات الاعراب » وهي فيما نرى لم تسمّ بحركات الاعراب إلا لأنها الحركات التي يتم بها الإعراب أي الإفصاح عمّا في النفس أو هي الحركات التي يعرب بها المتكلم عن حاجته . ولقائل أن يقول إن المتكلم بالعربية يعرب بالألفاظ عن المعاني ولمّا كانت هذه الحركات هي أبرز ما يفرّق به بين المعاني النحوية للألفاظ أطلق عليها اسم حركات الإعراب .

٣ ـ وأما قوله إن الذي يحدد معنى الفاعلية والمفعولية وغيرها في اللغة العربية هو نظام الجملة ، والموضع الخاص لكل من هذه المعاني اللغوية، وما يحيط بالكلام من ظروف وملابسات ، فقول غريب ، وهوإن صح في الحديث عن غير العربية فهولا يصح في الحكم عليها ، إذ من ذا الذي يستطيع أن يزعم أن للفاعل أو للمفعول في الجملة العربية موضعاً لا يتقدم عنه ولا يتأخر ؟

نعم لقد تعرض البلاغيون لنظام الجملة، وموضع المسند إليه، ومواضع تقديمه وتأخيره وذكره وحذفه ... وذكروا لذلك دواعي عددها علم المعاني ، ولكن أحداً منهم لم يستطع أن يضع للجملة العربية قانوناً كالذي يريد الاستاذ أن يفرضه عليها حين قال : « من اللغات ما تتخذ من جملتها حجرات تسكن في كل منها حالة من حالات النحو ، ففيها للفاعل موضع ، وللفعل موضع آخر وللمفعول موضع ثالث وهكذا ...[1] بل نحن نقول إن الموضع الواحد في الجملة العربية قد يحتله الفاعل مرة، والفعل مرة أخرى ، والمفعول مرة ثالثة ، إن الفاعل في العربية قد يأتي مبتدأ وقد يأتي مضافاً إليه ، قد يأتي عقب الفعل ، وقد يأتي قبله ، وقد يستتر فلا يظهر ... وان هذه المرونـة في تركيب الجملة العربيـة من أروع صفاتها ، وأكثرها فائدة في طواعية اللغة للناظم والشاعر ، وفي طواعية الألفاظ للحالات النفسية التي تستدعي في كثير

---

(١) من اسرار اللغة : ٢١٢ .

من الاحيان نظاماً خاصاً لا تساعد عليه اللغة ذات « الحجرات » الثابتة .

ان علم المعـاني يجدد لنا كيف نوافق بين مواضع الالفـاظ في الجملة وما نريد أن نؤديه من المعاني . واذا كان علماء البلاغة واهمين في تصوراتهم[1] فلنسأل عن النظام اللغوي الثابت في الجملة العربية .

لقد جال الاستاذ في كتب الجرجاني خاصة وكتب المتقـدمين عامة ولم يستطع أن يجد قانوناً ثابتاً للجملة كما يريد فقال « ونحن في بحثنا لنظام الجملة العربية ندرك تمام الادراك أن هذا النظام قـــد اختلف الى حد ما باختلاف العصور .. » [2] وهكذا ضاع القـــانون بين العصور .. وأما العصور القديمة ، عصور الاحتجاج فقد أطال الاستاذ فيها البحث ولم يأت بشيء مقنع ؛ لقد قال : ان الفعل المضارع وما اشتق منه في معنى واحد ، وان قولنا (والله يدعو الى دار السلام) كقولنا (والله الداعي الى دار السلام . .) ، وان قوله : (فان كان لهن ولد فلكم الربـع) كقولنا : (فان كان لهن ولد فالربـع لكم) وان الجملتين تؤديان المعنى نفسه .. وليس لك أن تناقش فالجرجاني مبالغ ، والبلاغيون منساقون معه ، وليس لك أن تسأل عن القصر في الجملة إذ أن الاستاذ لا يرى ذلك . ، انه لا يرى فرقـاً بين الجملتين ، ويرى أن اختيار أحـد الأسلوبين يرجع الى تلك النواحي الفنية التي تتأثر بمزاج الكاتب وموسيقى الكلام ...

---

(١) انظر من أسرار اللغة : ٢١٨ .

(٢) انظر من اسرار اللغة : ٢١٦ .

هل عرف العرب لغتهم معربة ؟

رأينا أن « الاعراب » خاصة من أبرز خصائص العربية ، ونحن نرى أن هذه الخاصة قديمة قدم اللغة نفسها ، وأنه لم يأت على العربية زمان كانت فيه مجردة من الاعراب ثم احتاج المتكلمون الى الاعراب فاخترعوه ، وأن هذه الفرضية ، ان صحت ، انما هي مرحلة تاريخية قديمة لا تعرفها اللغة العربية التي عرفها عرب الجاهلية وعرفناها عنهم .

وليس هذا الرأي بجديد فقد قال به أبو القاسم الزجاجي في باب « القول في الاعراب والكلام أيهما أسبق ؟ »

« قال : فإن قال : فأخبروني عن الكلام المنطوق الذي نعرفه الآن بيننا ، أتقولون إن العرب كانت نطقت به زماناً غير معرب ، ثم أدخلت عليه الاعراب ؟ أم هكذا نطقت به في أول تبلبل ألسنتها ؟ قيل له : هكذا نطقت به في أول وهلة ، ولم تنطق به زماناً غير معرب ثم أعربته (1) ». ثم قال في آخر الباب « وقد أجاز بعض الناس أن تكون العرب نطقت أولا بالكلام غير المعرب ثم رأت اشتباه المعاني فأعربته ، ثم نقل معرباً » .

وهذا يؤيد ما قلناه من أن اللغة لم تعرف عندنا الا معربة ، وأنها إن وجدت غير معربة فتلك مرحلة تاريخية متقدمة ! ويؤيد كون اللغة معربة عندنا :

---

(1) الايضاح : ٦٧ — ٦٨

١ ـ ان النصوص التي وصلت الينا من أدب القوم وشعرهم نصوص معربة .

٢ ـ اذا زعم زاعم ان هذه النصوص منحولة ، أو أن التحريف قد أصابها ، فان القرآن الكريم وأحاديث النبي ، وخاصة عند من لا يجيز النقل بالمعنى ، دليل على وجود الاعراب .

٣ ـ ما سبق أن ذكرناه [1] مما نقله الجاحظ من نحو قوله : « وأصحاب هذه اللغة لا يفقهون قول القائل منا : مكره أخاك لا بطل ، واذا عز أخاك فهن . ومن لم يفهم هذا لم يفهم قولهم : ذهبت الى أبو زيد ، ورأيت أبي عمرو . ومتى وجد النحويون أعرابياً يفهم هذا وأشباهه بهرجوه ولم يسمعوا كلامه ، لان ذلك يدل على طول إقامته في الدار التي تفسد اللغة وتنقص البيان . » فالعرب ما كانوا يفهمون الا اللغة المعربة السليمة ، وفي البيان والتبيين للجاحظ ، والخصائص لابن جني ، قصص كثيرة تدل على ذلك .

٤ ـ ما روي لنا من نماذج اللحن في الصدر الاول يدل على أن الإعراب أمر معروف وقاعدة متبعة وأن تركها لحن وشذوذ .

على أنه قد وجد بين الباحثين من زعم أن العربية كانت خلواً من الاعراب، وانه دخيل عليها ، فمن هؤلاء المستشرق K . Vollers الذي ادعى أن القرآن نزل أول الامر بلغة مكة المجردة من الاعراب ، ثم أعرب على نحو

(١) انظر ما سبق في ص : ٩٧

ما وضع العلماء من قواعد اللغة ! وهذا يفترض أولاً أن لهجة مكة كانت خالية من الاعراب، ولم يقم على ذلك أي دليل. ويفترض ثانياً أن العلماء أعربوا القرآن مع أن المبتدئين عندنا يعلمون أن القرآن هو أوثق النصوص التي يحتج بها على صحة قاعدة من قواعد الاعراب، أفنعربه نحن بحسب قواعدنا الموضوعة، ثم نعود لنحتج به على صحة تلك القواعد ؟ !

ثم هل عرف « فولرز » كيف نقل القرآن حتى وصل إلينا ؟ وهل عرف أن القرآن لم ينقل في الصحف والاوراق، وانما نقلته أفواه الملايين، وما تزال تتناقله كساعة أنزل على محمد ﷺ لاتبديل فيه ولا تغيير ؟

ثم إذا كان القرآن غير معرب فأين وجه التحدي حين يقف أمام لغة معربة ؟ وهل يقوم التحدي إلا اذا كانت لغة القرآن المنزل هي نفسها لغة القوم بكل ما فيها من ألفاظ وتراكيب وحركات... ؟

إن ما أحاط بالقرآن من اتقان في نقله هو الذي جعل لنصوصه الموضع الأول في الاحتجاج .. وكذلك الثقة في الحديث عند من يحتج به.

وقد رفض هذا الرأي الساذج بعض الباحثين ورد عليه المستشرق نولدكه وبيَّن وجه الخطأ فيه. وخفّف بعضهم من غلوائه فقال بوجود الاعراب في لغة العرب الأدبية، ولكنه رفض وجوده في لغة التخاطب[1].

وليست حجج هذا الرأي بأقوى من حجج الرأي السابق[2]. وحسب

---

(١) رأي المستشرق Cohen في Langue du monde

(٢) انظر مناقشة هذا الرأي في كتاب فقه اللغة للدكتور صبحي الصالح : ١٢٧.

صاحب الرأي أنه ينكر الاعراب في لغة التخاطب قديماً لأنه يرى أن الاعراب صعب ودقيق ! ! ولأن لغة التخاطب الآن خالية من حركات الاعراب !! ولسنا ندري هل يقيس الاستاذ (كوهين) صعوبة الاعراب على لسانه حين يتلجلج لسانه بالعربية، الى العرب الذين كانوا يتنافسون في تشبيه اللسان وهو يتنقل بين الحركات بالحصان الحديد، وتباً عند ذلك للكودن البليد بين العتاق . قال ابن جني : « فان تخلل الإعراب من ضرب الى ضرب يجري مجرى مناقلة الفرس ، ولا يقوى على ذلك من الخيـــل الا الناهض الرجيل دون الكودن الثقيل [1] . »

الدعوة الى ترك الاعراب :

تلبس هذه الدعوة كثيراً من الازياء ، وتختفي وراء كثير من الاسماء ، فهي تارة دعوة الى التسهيل ، وتارة ثانية دعوة الى عربية ميسرة ، وهي تارة ثالثة تجديد في النحو العربي ...

وحقيقتها دعوة الى النزول بالفصحى دون الارتفاع بالعامية ، فهي تأخذ الأدنى مقياساً للعمل ، وهي تتطلب الفهم الكامل من غير المثقف ، وتنكر بذل الجهد في تعلم اللغة ... وهذه كلها مغالطات خطيرة ، ومبادىء غير صحيحة . فالتيسير ينبغي أن يعالج الطريقة لا المادة ، والمثقف لا العامي هو المقياس الصحيح ، وبذل الجهد لا بد منه في تعلم اللغة وإتقانها ، وليس

---

(١) الخصائص ٢ : ٣٢

صحيحاً أن اللغة صعبة لا تتقن ، وليس صحيحاً أن كل صعب ينغبي هدمه أو الاستغناء عنه .

إن التخلي عن الاعراب في لغة تعتمد حركات الاعراب للتعبير عن المعاني النحوية كاللغة العربية هدم لها وإماتة لمرانتها ، وإن في ترك حركات الاعراب إلباساً لكثير من الجمل والتعبيرات لباس الإبهام والغموض ... إن كثيراً من الجمل تضيع معانيها بضياع الاعراب فيها ، ومن ذا الذي يستطيع أن يقرأ من غير الاعراب ويفهم مثل قولنا : انما يخشى الله من عباده العلماء . وما أحسن زيد .. ؟؟

فائدة الاعراب :

إن « الاعراب » في اللغة العربية ميزة حافظت عليها اللغة في تاريخها الطويل ، وينبغي أن تبقى محافظة عليها ، وذلك لأنه في الحقيقة وسيلة تعيين الوظائف النحوية للألفاظ في الجمل ، وبهذا يتم الاعراب عما في النفس .

وان الاعراب في مبدئه القائم على الحركات ، لغة ثانية نضيفها الى لغتنا الاولى التي هي الالفاظ، فاذا نحن أمام ثروة لغوية لا نفاذ لها ، وإذا كانت بعض اللغات مجبرة على أن تبتدع لكل معني من المعاني لفظاً خاصاً به ، فان العربية تستغني عن الكثير من الالفاظ بتلك الحركات التي تضعها على الالفاظ القديمة لتصبح لها مدلولات جديدة .. إننا بالحركة وحدها نميز بين القِرى والقُرى ، وبين المِقص والمَقص ، وبين العالِم والعالَم .. ، ان مجرد

الاعتماد على الحركات في تغيير المعاني ضرب من ضروب الإيجاز لا نظير له .

وبفضل الاعراب يستطيع الكاتب أو المتحدث أن يتصرف بالجملة فيراعي دواعي التقديم والتأخير دون أن يبقى أسيراً « للحجرات » النحوية الثابتة .. فأنت ، ما دامت للألفاظ رموزها ، تستطيع أن تتصرف في وضعها الموضع الذي يمليه عليك المعنى ، أو يشاؤه لك فنك أو مزاجك أو موسيقى كلامك .

ولا يخفى أخيراً أن بعض الذين تناولوا الظاهرة الاعرابية أو قصة الاعراب كانوا متأثرين الى حد بعيد ببعض اللغات الأجنبية وقوانينها ، وإن كثيراً من دلائل هذا التأثر كانت تطل من أبحاثهم ! ونحن لا نعيب الموازنة بين اللغات ، ولكننا نحذر من خطورة تطبيق قوانين لغة ما على لغة ثانية ، ونرى أن للعربية من بين اللغات أصالة تتمرد على كل طبيعة غريبة عن روحها وطبيعتها ، وأنه لابد في وضع القوانين لها من دراسة عميقة لطبيعتها وفقه لأسرارها .



تطوّر الدلالة والألفاظ الإسلامية

من أبرز الموضوعات التي يتناولها فقه اللغة بالبحث ، تلك الموضوعات المتصلة بدراسة الالفاظ . والالفاظ ذات جوانب متعددة ، كل منها يخضع لنوع من الدراسة ؛ هي ذات جانب صوتي تتناوله الدراسة من حيث كونه حروفاً أوأصواتاً ذات صفات خاصة ، ومخارج معينة، وتأثيرات متبادلة فيما بينها ... ، وهي ذات جانب معنوي تتناوله الدراسة من حيث دلالته على معنى معين . ثم إن تلك الدلالة قد تبقى ثابتة ، وقد تتسع أو تضيق ، وقد تتحوّل عن المعنى الذي كانت تدل عليه لتدلّ على معنى آخر ...

ومن الصلة بين الجانبين السابقين ، جانب اللفظ وجانب المعنى ، يتكون الجانب الثالث الذي تتناول الدراسة فيه علاقة الالفاظ بدلولاتها ، أو علاقة مباني الالفاظ بمعانيها .

ولعل موضوع (معانى الالفاظ) بما يشتمل عليه من ظواهر تطوّر الدلالة ، وما لهذا التطور من علل وأسباب [1] . من أكثر الدراسات اللغوية حظوة لدى الباحثين اليوم . وحسب هذا الموضوع من بين الدراسات اللغوية أنه ـ بعد أن كان فرعاً من فروع فقه اللغة ـ يكاد يكون علماً مستقلاً يعرف باسم (علم معاني الالفاظ) أو (علم الدلالة : Sémantique) .

وإن البحث في دلالة الالفاظ وتطور تلك الدلالة بحث ذو قيمة خاصة يستمدها من صلته بشؤون الحياة ، وعلاقة الافراد بعضهم ببعض ، إذ أن

---

(١) عد الى البحوث المفصلة عن دلالة الالفاظ، وظواهر تطورها ، وعوامل هذا التطور ، في كتب فقه اللغة .

كثيراً من القضايا والمعاملات بين الافراد ، بل المعاهدات والاتفاقيات بين الدول،تتوقف على تحديد معاني الالفاظ ، وكذلك يتوقف على تحديد معاني الألفاظ كثيرمن التفسيرات والاحكام الشرعية والقانونية ، مما دعا رجال الشرع والقانون الى بذل الكثير من الجهود في هذا السبيل .

وإن كثيراً من النصوص الأدبية تزداد في عينك جمالاً إذا أنت نفذت إلى ما وراء المعاني اللغوية أو المعجمية من معان شحنت بها تلك الألفاظ عبر تاريخها الطويل ، ومن ايحاءات وظلال قد تكون أجمل أثراً من المعنى اللغوي المعجمي للفظ .

أضف الى ذلك أن تعقب معاني اللفظ الواحد من خلال العصور قد يلقي على النص ضوءاً يزيده وضوحاً ، ويكشف عن معاني ألفاظه ستاراً لم يكن لينكشف لو وقف الباحث عند المعنى الوضعي الأول للفظ . ان اللفظ قد يستعمل في عصر من العصور لمعنىً يغاير المعنى الذي استعمل له اللفظ نفسه في عصر آخر ، ولذلك كان تفسير الألفاظ عن طريق شواهد من استعمال أهل العصر لها خيراً وأولى من تفسيرها عن طريق المعجم الموضوع في عصر معيَّن .

واننا بعد أن عرفنا أن اللفظ عبارة عن حروف أو أصوات مركبة وضعت للدلالة على معنى معين ، ليس يعنينا أن نقف كما وقف علماء اللغة قديماً وحديثاً بل كما وقف الفلاسفة من قبلهم ليبحثوا في أمر هذه الصلة القائمة

بين الألفاظ ومدلولاتها ، ولكننا نقف لنبحث في استمرار هذه الصلة بين وجهي الكلمة ؛ المنطوق والمفهوم ، اننا لن نسأل عن الصلة بين اللفظ ومدلوله ، أهي صلة ذاتية حتمية واجبة ، كما يراها بعض العلماء (١) ، أم هي صلة واقعة ولكنها ليست حتمية ولا واجبة ؟ ؟

ولكننا سنسأل عن هذه الصلة ـ بعد أن وجدت ، وصرفنا النظر عن المشكلة الفلسفية في كيفية وجودها ـ أهي صلة ثابتة ؛ يبقى اللفظ معها محافظاً على مدلوله أم يتخلى عنه الى غيره ؟ ؟ ولِمَ تتغير هذه العلاقة بينهما ؟ ؟ وما العوامل التي تؤثر في الالفاظ فتؤدي بها الى تغيير معانيها ؟ ؟

ان دراسة معاني الالفاظ ، ورصد تلك المعاني في فترات زمنية متباعدة تدل على أن كثيراً من الألفاظ تتبدل دلالاتها ؛ فمنها ما تكون دلالته خاصة أو ضيقة ثم تتسع وتزداد شمولا ، ومنها ما تكون دلالته عامة ثم تضيق وتتخصص . من ذلك مثلاً أن كلمة (البأس) ، كانت تعني في الأصل الشدة في الحرب ، ثم عمَّت دلالتها واتسعت وأصبحت تعني الشدّة مطلقاً ، وعكس ذلك ما أصاب دلالة كلمة (مأتم) ؛ فقد كان هذا اللفظ يدل على اجتماع النساء في فرح أو حزن ، ثم ضاقت دلالته وتحدَّدت ، فأصبح يعني اجتماع النساء في الحزن فقط .

وقد تناول الباحثون هذه الظاهرة بالدراسة، وأجملوا ظواهر تطور

---

(١) هو رأي لعباد بن سليان الصيمري من المعتزلة ، تجد تفصيله في المزهر ١ : ٤٧

الدلالة بالتعميم والتخصيص والرقي والانحطاط [1] ... كما تناولوا بالبحث عوامل هذا التطور الدلالي وأسبابه ، وبينوا ما يخضع له هـذا التطور من أسباب لغوية واجتماعية ونفسية [2] .

وكان لتقدم الدراسات الانسانية أثر بعيد في تقدم الدراساتاللغوية ؛ فلقد انطلق علماء اللغة ، بعد أن كانوا مقتصرين في تفسير التطور الدلالي وبيان أسبابه على العامل اللغوي الكامن في الألفاظ والتراكيب ، الى التفسير بأسباب وعوامل خارجية كالعوامل النفسية والاجتماعية التي رأيناهم يفسّرون بها ظواهر تطور الدلالة .

واذا كان البحث في فقه اللغة قد أفاد كثيراً من تقـدم الدراسات اللغوية والانسانية في العصور الحديثة فان مما تجب الاشارة اليه أن القـدماء من علمائنا عُنوا بمعاني الألفاظ ؛ فقام بعضهم يؤلف المجموعات اللغوية ، على أساس وحدة المعنى أو الموضوع ، كما هو الأمر في كتب الخيل والابل والشجر والدارات ، وقام بعضهم يضع المعجمات التي تجمع بين الألفاظ فيها وحدة المعنى دون الاصل اللغوي كما في المخصص لابن سيده . .

بل لقد كانت لبعض علمائنا المتقدمين محاولات ناجحة وآراء سديدة في

---

(١) انظر دلالة الالفاظ للدكتور ابراهيم أنيس : ١٤٨ - ١٥٦ وفقه اللغـة وخصائص العربية للاستاذ محمد المبارك : ٢١٨ — ٢٢٣ .

(٢) انظر دلالةالالفاظ : ١٣٠-١٤٧وفقه اللغة وخصائص العربية : ٢١٢-٢١٦

الكثير من قضايا اللغـة . ولعل من أبرز المحـاولات الناجحة في دراسة تطور دلالة الألفاظ تلك المحاولة العلمية الموفقة التي قام بها أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي المتوفى سنة ٣٢٢ هـ . والتي سجّلها في كتابه المسمى « الزينة في المصطلحات الاسلامية العربية » .

إن كتاب « الزينة » في حقيقته كتاب في تطور دلالة الألفاظ ، يبين واضعه فيه معاني عـــدد من الألفاظ التي اختارها من القرآن الكريم والحديث النبوي وكلام الفقهاء ، ذاكراً ما كان لبعضهـــا من معان قبل الاسلام ، وما طرأ على دلالتها من تبدل بظهور الاسلام .

والرازي في كتابه لغوي ذكي ، يستعين في فهمه للألفاظ بحروفها الأصلية ومادتها الاشتقاقية . ولعل هذا كما يرى الدكتور ابراهيم أنيس[1] أثر من آثار المدرسة الاشتقاقية التي سادت في عصر الرازي ممثلة في ابن دريد (٣٢١ هـ) صاحب (الجمهرة) و (الاشتقاق) ... هـــذه المدرسة التي بلغت الذروة على يد ابن فارس وابن جني في أواخر القرن الرابع .

لقد أراد الرازي من وراء محاولته اللغوية في « الزينة » خدمة دينه ؛ نظراً لما بين العربية والاسلام من صلة وثيقة . على أنـه لم يكن أول من أدرك صلة الدراسة اللغوية بالقرآن وعلوم الدين ، فقـد بادر العلماء منذ الصدر الأول الى تفسير غريب القرآن والاستشهاد له بالشعر ؛ فهذا

---

(١) مقدمة الزينة ١ : ٧ .

ابن عباس (٦٨هـ) يُسأل عن معاني ألفاظ من القرآن فيفسرها مستشهداً لكلٍ منها ببيت من الشعر . وهذا أبو عبيدة معمر بن المثنى (٢١٠هـ) يضع كتابه (مجاز القرآن) مولياً الجانب اللغوي عناية كبيرة ، محتجاً للآيات ومستشهداً لمعاني ألفاظها بأبيات من الشعر ، بل انه « فسر القرآن وعمدته الاولى الفقه بالعربية وأساليبها واستعمالها والنفاذ الى خصائص التعبير فيها[1] . » وكذلك كانت لابن قتيبة (٢٧٦هـ) عناية بـ (تفسير غريب القرآن) و (تأويل مشكل القرآن) .

وقدكان هناك موضوع ثان يربط بين الدراسات اللغوية والقرآن؛ وهو موضوع عروبة ألفاظ القرآن ، فقد راح العلماء يبحثون في بعض الألفاظ القرآنية التي قيل إنها أعجمية أو ذات أصول أعجمية ليتحققوا أعربية هي أم أعجمية ؟ وكانت لهم في ذلك آراء مختلفة ؛ فمنهم من قال بأن في القرآن ألفاظاً لم تعرفها العرب ، ومنهم من قال بعربية ألفاظ القرآن، وكان الامام الشافعي ممن ذهب الى هذا الرأي فقال : « إن جميع كتاب الله إنما نزل بلسان العرب[2] » . وقال : « والقرآن يدل على ان ليس من كتاب الله شيء إلا بلسان العرب[3] » فسّر زعم القائلين بأن في القرآن ألفاظاً بغير لسان العرب بقوله : « ولعل من قال إن في القرآن غير لسان العرب ، وقبل ذلك منه ، ذهب الى ان من القرآن خاصاً يجهل بعضه بعض العرب[4] . » كما عزا ذلك ، اذا صح وجوده ،

---

(١) مقدمة مجاز القرآن لفؤاد سزكين ص : ١٦

(٢) الرسالة : ٤٠ .   (٣ و ٤) الرسالة : ٤٢ .

إلى إمكان حصول التوافق بين اللغات ، فقال : « ولا ننكر ، إذ كان اللفظ قيل تعلماً اونطق به موضوعاً ، ان يوافق لسان العجم او بعضها قليلا من لسان العرب ، كما يتفق القليل من ألسنة العجم المتباينة في أكثر كلامها مع تنائي ديارها واختلاف لسانها وبعد الاواصر بينها وبين من وافقت بعض لسانه [1] » .

وحجة الشافعي آيات القرآن التي تثبت عربية ألفاظه وتنفي عنه العجمة من نحو قوله تعالى : « وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين [2] » .

وأما القاسم بن سلام (٢٢٤هـ) فقد قال موفقاً بين القولين إن هذه الحروف وأصولها عجمية ، إلا أنها سقطت الى العرب فأعربتها بألسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم الى ألفاظها فصارت عربية . ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب . فمن قال إنها عربية فهو صادق . ومن قال عجمية فهو صادق . وبمثل ذلك قال ابن فارس في الصاحبي [3] ولسنا الآن بصدد تحقيق ذلك لننقل ما قاله في الموضوع بعض

---

(١) الرسالة : ٤٤ — ٤٥

(٢) الشعراء ٢٦ : ١٩٢ — ١٩٥ وانظر الآيات ١٢ : ٢ ، و ٢٠ : ١٣٠ و ٣٩ : ٢٨ ، و ٤١ : ٣ و ٤٢ : ٧ ، و ٤٣ : ٣ ، و ٤٦ : ١٢ فكلها على أنه قرآن عربي بلسان عربي .

(٣) انظر الصاحبي : ٢٩ وانظر الزينة : ١٣٤ — ١٤٠ .

الفقهاء والمفسرين ولكنا أردنا من ذلك الى إثبات الصلة بين القرآن والدراسات اللغوية ، تلك الصلة التي كان كتاب (الزينة) ثمرة من ثمراتها .

على أن الرازي لم يقصر كتابه على المصطلحات الاسلامية العربية وإنما تحدث في كتابه عن اللغة العربية وفضلها ، كما تحدث عما اتسعت له من نحو وشعر وعروض ... حتى وصل الى موضوعه فافتتحه (١) بذكر أسماء الله عز وجل وصفاته ، وتفسير ما قالت العلماء في معانيها او عباراتها ، ثم شرح بعد ذلك معاني أسماء كثيرة تذكر في الشريعة ، وذكر معانيها واشتقاقاتها (٢) . قال : « والذي نريد تفسيره من معاني الاسماء : فمنها ما هي قديمة في كلام العرب ، اشتقاقاتها معروفة . ومنها أسام دل عليها النبي ﷺ في هذه الشريعة ونزل بها القرآن ، فصارت أصولاً في الدين وفروعاً في الشريعة ، لم تكن تعرف قبل ذلك ، وهي مشتقة من ألفاظ العرب . وأسام جاءت في القرآن لم تكن العرب تعرفها ولا غيرهم من الامم مثل تسنيم وسلسبيل وغسلين وسجين والرقيم وغير ذلك .. (٣) »

ويثير انتباهنا هذا التشابه في العناية بأسماء الله تعالى في تلك الفترة ؛ فان ابن قتيبة (٢٧٦ ﻫ) من قبل كان قد افتتح كتابه (تفسير غريب القرآن) بذكر اسماء الله تعالى وقال : « نفتتح كتابنا هذا بذكر اسمائه

---

(١) الزينة ١ : ١٢٨ .

(٢) الزينة ١ : ١٣١ . (٣) الزينة ١ : ١٣٤ - ١٣٥ .

الحسنى وصفاته العلا ، فنخبر بتأويلها واشتقاقها ..[1] » وكذلك رأينا أبا حاتم يفعل من بعده ، ويرى الاستاذ الهمداني محقق كتاب الزينة ان الرازي وضع كتابه على هدي ما جاء في غريب القرآن لابن قتيبة[2] ثم يضع أبو القاسم الزجاجي (٣٣٧ هـ) كتاباً يخصه باسماء الله تعالى وهو كتاب « اشتقاق اسماء الله تعالى وصفاته المستنبطة من التنزيل وما يتعلق بها من المصادر واللغات والتأويل[3] » .

ويمتاز الرازي باستيعاب بحثه ، وجمعه لما تفرق عند غيره ، يقول في كتابه : « هذا كتاب فيه معاني اسماء واشتقاقات ألفاظ وعبارات عن كلمات عربية ، يحتاج الفقهاء الى معرفتها ، ولا يستغني الادباء عنها ، وفي تعلمها نفع كبير وزينة عظيمة لكل ذي دين ومروة .. وبدأنا فيه بفضل لغة العرب . ثم ذكرنا بعد ذلك معاني أسماء الله عز وجل وصفاته ، ثم معاني اسماء تذكر باللغة العربية مما هي في العالم ومما جاءت في الشريعة مثل : الامر والخلق والقضاء والقدر واللوح والعرش والكرسي والملائكة والجن .. وجهنم والصراط والاعراف والبرزخ والقيامة والفلك والبروج والنجم والكواكب والاقليم والجزيرة ... ،

---

(١) تفسير غريب القرآن : ٦ .

(٢) انظر الحاشية : ٢ ص : ٢٠ من كتاب الزينة .

(٣) منه نسخة خطية في دار الكتب بالقاهرة .

ومعاني اسماء مدن عربية مشهورة ، ومعنى الروح والنفس .. والاسلام والايمان ، ومعاني ألقاب فرق الاسلام . . . واشتقاق الزكاة والصدقة .. وبعدد ما يزيد على مائتي كلمة ثم يقول « وغير ذلك من معاني أسماء نذكرها ، ونذكر معانيها ، ونستشهد على ذلك بالشعر المعروف ، ونورد فيه ما وقع الينا من أقاويل العلماء باللغة ، وما روي عن العلماء وأهل التفسير في تفسير كل حرف والمعول على حكاياتهم وألفاظهم وما فسروه في كتبهم ورويت الاخبار به عنهم إذ كانت متفرقة في مصنفاتهم ورواياتهم لا يوقف منها إلا على الحرف بعد الحرف إذا مر في كتاب او ذكر في رواية . وكثير منه مما لم يدون عنهم ولم يفسر تفسيراً شافياً[1] » .

ويفسر الرازي معاني الكلمات وما طرأ عليها من تطور دلالي بين الجاهلية والاسلام مستشهداً بالقرآن والحديث والشعر ، وقد يفسر الكلمة أحياناً تفسيراً لغوياً لا نرى فيه أثراً لتغير المعنى .

قال أبو حاتم : « إن الاسماء التي هي مشتقة من ألفاظ العرب ولم تعرف قبل ذلك مثل المسلم والمؤمن والمنافق والكافر لم تكن العرب تعرفها . لأن الإسلام والايمان والنفاق والكفر ظهر على عهد النبي ﷺ . وإنما كانت العرب تعرف الكافر كافر النعمة ، لا تعرفه من معنى الكفر بالله . قال الشاعر :

---

(١) انظر الزينة : ٥٦ - ٥٨

ولا تحسبنّي كافراً لكِ نعمة

وقال آخر :

والكفر مخبثة لنفس المُنعِم

وكانت تعرف المؤمن من جهة الأمان . قال الشاعر :

والمؤمن العائذات الطير يمسحها ركبانُ مكة بين الغيلِ والسَّندِ

أما المنافق فانه لا ذكر له في كلام العرب [١] ...

وقال : « فالاسلام هو اسم لم يكن قبل مبعث النبي ﷺ . وكذلك أسماء كثيرة مثل الأذان والصلاة والركوع والسجود ، لم تعرفها العرب إلا على غير هذه الاصول ، لأن الأفعال التي كانت هذه الاسماء لها لم تكن فيهم وإنما سنّها النبي ﷺ وعلّمها الله إياه ، فكانوا يعرفون الصلاة أنها الدعاء . قال الأعشى في صفة الخمر :

فإن ذُبحت صلّى عليها وزمزما

أي دعا لها : « وعلى هذا كانت سائر الأسامي [٢] . »

ويذكر الرازي كذلك بعض التراكيب الاسلامية التي لم تكن معروفة قبل الاسلام كقولهم : بسم الله الرحمن الرحيم . ولا حول ولا قوة إلا بالله . وحسبنا الله ونعم الوكيل . والسلام عليكم ..» وإنا لله .وإنا اليه راجعون

---

(١) الزينة : ١٤٠ ١٤١ .

(٢) الزينة : ١٤٦ – ١٤٧ .

وما شـــاء الله كان [1] ... » ثم يقول : « فهذه الكلمات كلها ظهرت في الاسلام على لسان محمد ﷺ بلسان عربي مبين ، ولم تكن لسائر الامم على هذا النظم العجيب والاختصار الحسن ، فلما وردت عليهم اضطروا إلى قبولها وتدوينها والاقرار بفضلها [2] .. »

ولعل مما يميز كتاب الزينة أن الرازي لم يقف فيه عند ألفاظ القرآن والحديث ، وإنما تجاوزها موسّعاً أفق دراسته حتى كانت له ثروة ضخمة من الالفاظ الاسلامية التي وضعها الفقهاء واستعملها المسلمون ، وحسبك أن تقرأ الصفحات الثلاث الأولى من مقدمة كتابه [3] لتدرك ما وصل إليه بحثه من استقصاء واستيعاب .

وما زال علماء اللغة يعنون ببيان الالفاظ الاسلامية ، وشرح معانيها وتطور دلالاتها ، حتى كان لهذه الالفاظ باب خاص في كتبهم . ففي كتاب الصاحبي في فقه اللغة يقول ابن فارس (٣٩٥ هـ) : « كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقرابينهم .

فلما جاء الله جل ثناؤه بالاسلام حالت أحوال ونسخت ديانات وأبطلت أمور ، **ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع الى مواضع أخر** ؛ بزيادات زيدت وشرائع شرعت وشرائط شرطت ، فعفى الآخر الأول [4] . »

---

(١) انظر باب الكلمات الاسلامية التي لم تكن للامم ١ : ١٥٠

(٢) الزينة ١ : ١٥٢ .

(٣) الزينة ١ : ٥٦ — ٥٨ .   (٤) الصاحبي ٤٤ .

ويفصّل ابن فارس القول في بعض الالفاظ ويدل على ان العرب عرفت بعضها أو عرفت موادها اللغوية ثم استعملت بعد الاسلام ، هي أو مشتقاتها ، لمعانٍ جديدة فكان « مما جاء في الاسلام ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق . وإن العرب إنما عرفت المؤمن من الامان ، والايمان هو التصديق . ثم زادت الشريعة شرائط وأوصافاً بها سمّي المؤمن بالاطلاق مؤمناً . وكذلك الاسلام والمسلم ، إنما عرفت منه اسلام الشيء ، ثم جاء في الشرع من أوصافه ما جاء . وكذلك كانت لا تعرف من الكفر إلا الغطاء والستر . فأما المنافق فاسم جاء به الاسلام لقوم أبطنوا غير ما أظهروه ، وكان الأصل من نافقاء اليربوع . ولم يعرفوا في الفسق الا قولهم : فسقت الرطبة ، اذا خرجت من قشرها ، وجاء الشرع بأن الفسق الإفحاش في الخروج عن طاعة الله جل ثناؤه[1] . »

ويذكر ابن فارس كذلك ألفاظ الصلاة والسجود والصيام والزكاة ، وينتهي الى أن لكل من ذلك اسمين أحدهما لغوي والآخر شرعي .

ويذكر ابن فارس ـ الى جانب الألفاظ الاسلامية ألفاظاً عربية كانت مستعملة قبل الاسلام ثم زالت بمجيئه ، فيقول : « ومن الاسماء التي كانت فزالت بزوال معانيها قولهم : المرباع ، والنشيطة ، والفضول ... ،

(١) الصاحبي : ٤٥ وفي الصحاح (مادة : فسق) : قال ابن الاعرابي : لم يسمع قط في كلام الجاهلية ولا شعرهم فاسق .

ومما ترك أيضاً : الاتاوة والمكس والحلوان ، وكذلك قولهم : أنعم صباحاً ، وأنعم ظلاماً [1] ... »

ويروون عن النبي ﷺ ألفاظاً لم يقلها أحد قبله كقوله : مات حتف أنفه ، ولا ينتطح فيها عنزان ، والآن حمي الوطيس ، وإياكم وخضراء الدمن ... وغيرها ٠

وهكذا كان للاسلام وما أتى به من تطور فكري واجتماعي آثار بعيدة في اللغة وتطوير معاني الكثير من ألفاظها . بل إننا لنرى أنه بعد أن أثر ظهور الاسلام في اللغة العربية هذه الآثار ؛ فأوجد ألفاظاً لم تكن مستعملة من قبل ، وألبس ألفاظاً قديمة معاني جديدة لم تكن تلبسها أو تدل عليها ... ، وبعد أن استقرت هذه الآثار الاسلامية في اللغة العربية ، لم يعد لموضوع تطور دلالة الألفاظ ، في اللغة العربية ، تلك القيمة التي ما زال يتمتع بها في سائر اللغات ؛ وذلك لأن أثر الاسلام في اللغة العربية كان أكبر أثر عرفته هذه اللغة ، ونحن لو تجاوزنا الألفاظ الاسلامية وما يتصل بها لوجدنا الألفاظ التي أصابها تطور دلالي أو أصابت حظاً من تطور الدلالة ألفاظاً قليلة ، ولوجدنا أن التطور الذي أصابته لم يخرج بها غالباً عن دلالاتها الاولى وانما نقلها ، في محيط دلالتها الاولى ، من معنى عام الى معنى خاص . ولنأخذ مثلاً ألفاظ : الساعي ـ الصحيفة ـ الجريدة . ولنرصد تطور دلالتها فاننا نجد :

---

(١) انظر ذلك وغيره في الصاحبي : ٥٨ — ٦١ ٠

ان لفظ (الساعي) كانت تدل على من يسعى في أمر ما . « قال الزجاج : أصل السعي في كلام العرب التصرف في كل عمل . ومنه قوله تعالى (وأن ليس للانسان إلا ما سعى) . وكل عمل من خير أو شر : سعي . وفي التنزيل (لتجزى كل نفس بما تسعى) .

والسعي يكون في الصلاح ويكون في الفساد ، قال الله عز وجل : (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فساداً [١]) ..

وكانت العرب تسمي أصحاب الحمالات لحقن الدماء وإطفاء الثائرة [٢] سعاة ، لسعيهم في صلاح ذات البين ، ومنه قول زهير :

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما   تبزل ما بين العشيرة بالدم

أي : سعيا في الصلح وجمع ما تحمّلا من ديات القتلى .

ويقال لعامل الصدقات : ساع وجمعه سُعاة ، والسعاة : ولاة الصدقة ، وسعى به إلى الوالي سعاية : وشى [٣] . »

وهكذا فالكلمة إذاً كانت مستعملة لمعنى السعي عامة ، سواء كان ذلك في خير أم شر ، ثم خصّت بالساعي على الصدقات ، وخصّت اليوم بالساعي بين الناس بالبريد يوصله إليهم . وفي كل ذلك سعي واضح ، وعدم خروج عن الدلالة اللغوية الاصلية للكلمة .

---

(١) تتمة الآية : (ان يقتلوا او يصلبوا او تقطع أيديهم وارجلهم من خلاف او ينفوا من الارض) المائدة ٥ : ٣٣ .

(٢) يقال : ثارت ثائرة في الناس اي هاجت هائجة .

(٣) النص من لسان العرب ، مادة : سعى .

وكذلك كلمة (الصحيفة) تعني الصحيفة التي يكتب فيها ، وتجمع على صحائف وصُحُف وصُحْف ، وفي التنزيل :(إن هذا لفي الصحف الأولى ،صحف ابراهيم وموسى) يعني الكتب المنزلة عليها .

وصحيفة الوجه : بشرة جلده [١] .

والصحيفة الكتاب ، ومنه صحيفة المتلمّس [٢] ..

وهي اليوم إذا أطلقت تعني إحدى صحف الاخبار ، أي أنها تستعمل اليوم مرادفة لكلمة (الجريدة) . وليس في هذا الاستعمال الحديث خروج عن المعنى اللغوي الاصيل للكلمة ، ولكنه تخصيص له .

وأما كلمة (الجريدة) فمن جرَدَ الشيء وجرّده : إذا نزع ما عليه ، ومنه جرده ثوبه ، ومنه الرجل الأجرد : الذي نزع شعره ، وثوب جَرْد : سقط عنه زئبره . والجريدة من الخيل : جماعة من الخيل جردت من سائر الخيل لأمر ما . والجريدة : سعفة طويلة ، وقيل هي للنخلة كالقضيب للشجرة . وفي لسان العرب : « وذهب بعضهم الى اشتقاق الجريدة فقال هي السعفة التي تقشر من خوصها كما يقشر القضيب من ورقه . والجمع جريد

---

(١) لم تبق الكلمة هنا مطلقة وانما خصت باضافة الوجه اليها ، وكذلك هي في بيت الخنساء :

برزت صحيفة وجه والده ومعنى على غلوائه يجري

(٢) النص من لسان العرب ، مادة : صحف .

وجرائد ... وفي الحديث : كتب القرآن في جرائد[1] . »

فكلمة (الجريدة) إذاً كانوا يستعملونها لورقة النخل ، وكانوا يتخذونها للكتابة عليها كما نستعمل الورق اليوم . وقد خصّت اليوم بنوع معين من الورق تكتب عليه الاخبار ، وتستعمل مرادفة لكلمة الصحيفة .

أما بالنسبة إلى اللغات الاخرى فقد يكون لتطور المعاني أو تطور دلالة الالفاظ قيمة أكبر ؛ لان طبيعة تلك اللغات وأوضاعها مخالفة لطبيعة اللغة العربية وأوضاعها . وليس هنا موضع الموازنة بين خصائص العربية وخصائص تلك اللغات ، ولكن حسبنا الآن أن نقول إن أبناء العربية اليوم يفهمون دون عناء كبير ما كان قاله طرفة وعنترة وزهير من عشرات القرون على حين لا يفهم أبناء الانجليزية مثلاً ولا المثقفون منهم ما كان قاله تشوسر : (Chaucer) منذ خمسة قرون[2] !!

* * *

(١) النص من اللسان ، مادة : جرد

(٢) توفي تشوسر سنة ١٤٠٠ م .

بين العربية والقرآن

وزع المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي بمناسبة مرور أحد عشر قرناً على نزول القرآن استفتاء حول علاقة الاسلام باللغة العربية ، وكان نص السؤال الموزع « هل هناك تلازم أو ارتباط بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة العربية ؟ وفي حالة الايجاب ما مدى هذا التلازم أو هذا الارتباط ؟ . »

أما الشق الأول من السؤال فنحن نرى أنه سؤال عن واقع لا مجال للحديث فيه ،ولا حاجة بنا إلى البرهنة عليه ؛ إذ أليس القرآن هو كتاب هذا الدين ؟ ثم أليست العربية هي لغة هذا الكتاب ؟؟

هل عرف العالم إسلاماً بلا قرآن ؟ وهل عرف العالم قرآناً بغير العربية ؟ إن ارتباط كتاب سماوي منزَّل بلغة بعينها ـ كارتباط الاسلام باللغة العربية ـ أمر لم نعرفه لغير هذا الدين ولغير تلك اللغة ، وإذا كان غير القرآن من الكتب السماوية المقدسة ـ كالانجيل مثلاً ـ قد ترجم الى لغات كثيرة وبقي على ما هو عليه من كونه كتاباً تعبُّدياً مقدساً ، فان القرآن قرآن بلفظه ونصه ، لم يترجم ولا يمكن أن يترجم ، وإن ترجمت أفكاره ومعانيه ، ، وإن أفكاره ومعانيه لا تسمى قرآناً ، ولا يصح أن تكون ـ في الاسلام ـ كتاباً تعبدياً ، لان القرآن ليس قرآناً

بأفكاره ومعانيه فقط ، وإنمـــا هو بالمعاني والالفـــاظ والأسلوب ، بالنظم والافكار جميعاً ، وإذا كانت لدى غير المسلمين صلوات تتلى بغير لغة الكتاب المقـدس ، فان الحكم الشرعي في الاسلام أنه لا صلاة بغير اللفظ العربي للقرآن .

وهكذا أوجد الاسلام ارتباطاً بينه وبين اللغة العربية ثم فرضه فرضاً . وكان من أثر هذا الارتباط المبارك أن عادت على اللغـة العربية جهود وثمرات لم يبذلهـا أصحابها يوم بذلوها إلا خدمة لهـذا الدين ، وليس هنا مجال الحديث عن نشأة علوم العربية وصلتها بالحركة الفكرية والعلمية التي ازدهرت في ظلال القرآن وبسبب منه [1] .

لقـد كان من مفاخر اللسان العربي أن كان هو المظهر اللغـوي للمعجزة الآلهية الخالدة المتجلية في القرآن .

على أننا لا نعني بهـــذا أن اللغـة العربية لم تكن قبل القرآن شيئاً مذكوراً ، بل نحن لا ننكر أن العربية بلغت قبل نزول القرآن مبلغاً من الرقيّ والكمال ، وأصابت في أسـواق العرب ـ قبل الاسلام ـ حظاً من الوحدة ، ولكننا نعني أنها لمـّا نزل بها القرآن بلغت به ذروة الكمال الفني للغة ، واتصف أسلوبه فيها أو أسلوبها فيه بالإعجاز ، وبلغت به مداها

---

(١) انظر كتابنا «النحو العربي» ص : ٧٩ وما بعدهـا . وكتابنا « الموجز في تاريخ البلاغة » ص : ٣٢ وما بعدها .

الأبعد في الثبات والتوحد واتساع الرقعة ومدّ السلطان .

وما دام هذا الارتباط بين العربية والقرآن أمراً واقعاً وفرضاً مقرَّراً فما لنا ولحساب المنفعة المتبادلة بين انتشار الاسلام الذي يؤدي الى انتشار العربية أو انتشار العربيـــة الذي يؤدي الى انتشار الاسلام ؟ إنه سؤال التاجر يريد أن يعرف أيها كان أعود بالنفع على الآخر !! إنه ما دام الارتباط بينهما ارتباطاً لا انفصام له ،فلن نفيـــد شيئاً من حساب الربح والخسارة ، وستبقى العربية - في أقل المراتب وأدنى الدرجات - لغة تعبدية للمسلمين ، يفرضها هذا الدين فرضاً أينما حلّ، ويحملها معه أينما انتشر .

وحسبنا أمام هـذا المـيزان التجاري - الذي على ما نرى ونلح لا يغيّر من الواقع شيئاً أياً كانت نتيجته- أن نقول إنه إذا أدخلت العربية أقوامـاً في الاسلام ، سواء كان ذلك في بلاد العرب أو في غيرها ، فان القرآن نفسه قد أسهم في هذا الميدان ، لأنه هو الأسلوب الأمثل لتلك اللغة التي سمعوها فأحبوها ، بل إن العرب من هؤلاء كانوا على معرفة تامة بلغتهم وأساليبها، ولكن لغتهم بحروفها وألفاظها جاءتهم هذه المرة بما بهر ألبابهم من أسلوبها في القرآن ، وبمـــا لم يستطيعوا لأثره في أنفسهم دفعاً ، فتوهموا أنه السحر المفرّق بين الرجل وأهله، ولم يجـد من لم يؤمن منهم من سلاح المكابرة والعناد سوى التواصي باللغو فيه وعدم الاستماع اليه « وقال الذين كفروا : لا تسمعوا لهذا القرآن ، والـْغَـوْا فيه لعلكم تَغلِبون [1] . »

(١) سورة فصلت ٤١ : ٢٦ .

ويحق للذين يستهويهم حساب الربح والخسارة أن يسألوا : كم يبلغ عدد هؤلاء الذين جذبتهم لغة القرآن الى الايمان به بالنسبة الى أولئك الملايين الذين دخلوا في الاسلام لا حباً بلغته ولكن إيماناً بما فيه من مبادىء وأفكار، ثم كان عليهم بعد أن أسلموا أن يتعلموا لغة دينهم ، وكان عليهم أن يتعبدوا بالقرآن ، ولا قرآن إلا بالعربية كما أسلفنا ، فاذا هم مشدودون إلى هذه اللغة بقلوبهم وأفكارهم ، وإذا تعلمها فرض عليهم لامناص لهم منه ، ولا اختيار لهم فيه .. ؟

لقد شد الاسلام أقواماً غير عرب الى لغة العرب ، ونشر اللغة العربية في بلاد لم يكن لها فيها نصير ولا للعرب فيها سلطان .. لقد خرجت العربية من جزيرة العرب مع الفتح الاسلامي فاذا هي لغة أهل الشام والعراق ومصر،واذا هي تتعدى كونها لغة دين الى كونها لغة شعب ودولة .

وما زال للاسلام أثره في نشر العربية والحفاظ عليها في البلاد غير العربية ، وهو أثر يفوق آثار المراكز الثقافية التي نراها اليوم منتشرة في بلدان العالم للسهر على رعاية لغات معينة كالفرنسية أو الانكليزية . ان أصحاب هذه المراكز ينفقون الملايين في سبيل الدعاية لمراكزهم وثقافتهم ونشر لغتهم على حين أن الاسلام يجعل من البلاد التي ينتشر فيها شعوباً راغبة في تعلم لغته ، وما أكثر ما نسمع أصواتاً ترتفع في تلك البلاد مطالبة بارسال المدرسين العرب لتعليم اللغة العربية، أو مطالبة بقبول أبنائها في

مدارس البلاد العربية وجامعاتها ليتعلموا اللغة العربية .

لقد استهوى الاسلام أقواماً فحبَّب إليهم لغته ، بل لقد كان للاسلام فضل عظيم في ظهور عدد لا يحصى من العلماء غير العرب نبغوا في لغة العرب وعلومها من نحو وصرف وبلاغة ، وحسبنا بسيبويه علماً لهذه الطائفة من العلماء غير العرب الذين بلغوا القمة في علم من علوم العربية حتى أصبحوا مضرب المثل ، وحتى أصبحنا اذا أردنا مدح واحد من العلماء العرب ألحقناه بأحدهم أو شبهناه به فقلنا مثلاً فلان أو فلان سيبويه عصره . وسيبويه نفسه لم يكن من غرضه ولا قصده أن يتعلم العربية وانما كان يريد علماً يفقّهه في الدين ؛ فقد رووا أن سيبويه كان يستملي من حماد ابن سلمة [1] يوماً فأملى حماد عليه : قال رسول الله ﷺ : « ليس أحد من أصحابي الا وقد أخذت عليه ليس أبا الدرداء . » فقال سيبويه : ليس أبو الدرداء . فقال حماد : لحنت يا سيبويه . فقال سيبويه : لا جرم لأطلبن علماً لا تلحنني فيه أبداً . ثم انصرف الى طلب النحو ودراسته ولم يزل يلازم الخليل [2] .

وكذلك كان الزمخشري صاحب (الكشاف) في التفسير ، وصاحب (المفصَّل) في النحو ، فهو غير عربي ولكن إخلاصه للاسلام عصمه من الشعوبية وأنطقه بحب العرب والعربية حتى قال : « اللهَ أحمد على ان

---

(١) حماد بن سلمة كان مفتي البصرة وأحد رجال الحديث. مات سنة ١٦٧ ه‍ وقيل قبل ذلك . (٢) انظر انباه الرواة ٢ : ٣٥٠ .

جعلني من علماء العربية ، وجبلني على الغضب للعرب والعصبية ، وأبى لي أن أنفرد من صميم أنصارهم وأمتاز . وأنضوي الى لفيف الشعوبية وأنحاز[٢] .»

وحسبك بالخوارزمي مثلاً من هؤلاء الاعلام الذين أحبوا العرب وقدّسوا لغتهم ، وهو الذي كان يقول : « والله لأن أهجى بالعربية أحب إلي من أن أمدح بالفارسية . »

ولسنا هنا بصدد تعداد أولئك الاعلام،ولكننا مثلنا بهؤلاء لنبين كيف كان للغة العربية ـ بفضل الاسلام ـ أنصار ومحبون من غير العرب ، وكان لها منهم علماء وأعلام عرّبهم الاسلام حتى كان منهم أصحاب المؤلفات الرائعة في قواعد اللغة العربية وفي بلاغة الكتاب العربي المبين .

لقد كان الاسلام عاملاً نقل اللغة العربية تلك النقلة الواسعة من لغة قوم إلى لغة أقوام ، من لغة محدودة بحدود أصحابها إلى لغة دعوة جاءت الى البشر كافة ، فكانت العربية بذلك لسان تلك الدعوة ، ولغة تلك الرسالة، ومستودَع ما نتج عن تلك الرسالة من فكر وحضارة .

ولعل هذا الأثر يكون أكثر وضوحاً إذا قلنا إن أثر الاسلام في اللغة العربية لم يكن بأقلّ من أثره في العرب أنفسهم ؛ فلقد كانوا قوماً قابعين في جزيرتهم ، مفرّقين بين قبائلهم ، لا يغادر أحدهم أرضه ـ إذا غادرها ـ إلا لتجارة أو غرض شخصي، فاذاهم بعد الاسلام وحدة موحدة ، وإذا هم بعده ينطلقون الى العالم فاتحين مبشرين ، أصحاب دعوة وحملة رسالة .

---

(١) مقدمة المفصل .

وللقرآن – قبل ذلك – فضل على العربية حين أنزل بهـا فثبَّت في جزيرة العرب وحدتها ، ومدَّ أطنابها ، وحال دون تشعُّب لهجاتها .

لقد عرف العرب كمال لغتهم في القرآن فاجتمعوا عليه ، ولولا ما استقر من فطرتهم في ذلك لمـا كان لهم عليه اجتماع ، ولا كان لهم على إعجازه إجماع ، ولكان لكل قبيلة مذاهب للقول فيه ، وهم لو لم يجتمعوا عليه لزاد ما بين لهجاتهم من تباين واختلاف ، ولزادهم الاختلاط بغيرهم بُعداً عن فصاحة لسانهم ووحدة لغتهم .

على أننا لا نعني ان العرب لم تكن لهم قبل الاسلام جامعة من لغة، بل قلنا إن القرآن : « ثبّت وحدة اللغة في جزيرة العرب » وهذا فيما نرى موضع يحتاج الى مزيد من البيان :

لقد كان في جزيرة العرب قبائل ولهجات ، وكان بين تلك اللهجات وجـــوه من التباين والاختلاف ؛ فاختلاف بين حركة وحركة (نَستعين ونِستعـين) ، واختلاف بين حركة وسكون (مَعَـكم ومَعْـكم) ، واختلاف في إبدال حرف من حرف (أولئك وأولالك ، أنَّ زيداً وعنَّ زيداً) ، واختلاف في تقديم حرف وتأخيره (صاعقة وصاقعة) ، واختلاف في إثبات حرف وحذفه (استحييت واستحيت) ، واختلاف بين تفخيم حرف وإمالته (قضى) ، واختلاف في إدغام حرف بحرف وترك إدغامه (يغضّْ ويغضُضْ) ، واختلاف في الاعراب (ما زيد قائماً وما زيد

قـائم) ، واختلاف في صورة الجمـع (أَسْرى وأُسَارى) واختلاف في الوقف على هاء التأنيث (هذه أمَّه وهذه أمَّتْ) ، واختلاف في الزيادة وعدمها (أنظور وأنظر) ، واختلاف في التضاد ... الخ [1] .

على أن وجود هـذه الاختلافات فيما بين اللهجات لا يعني أبداً انه لم تكن للعرب قبل الاسلام لغة واحدة يجتمعون عليها ؛ لقد كانت لهجاتهم تبـدو في أحاديثهم في قبائلهم ، وأما إذا خرج أحدهم – وخاصة أديبهم أو خطيبهم أو شاعرهم – عن نطاق قبيلته الى مخاطبة غيرها ، كما في أسواقهم الادبية ، فانه لا يتحدث إلا بمـا أجمعوا عليه إجماع الفطرة أولاً ، ثم إجمـاع الأمر الواقع الذي فرضه حجهم إلى ارض قريش وتجارتهم مـع قريش ثانياً . لقد « كانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسنَ لغـاتهم واصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات الى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب . ألا ترى انك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم ، ولا عجرفية قيس ، ولا كشكشة أسد، ولا كسكسة ربيعة ، ولا الكسر الذي تسمعه من أسد وقيس مثل تِعلمون ونِعلم وشِعير وبِعير [2] . » ومع ذلك فلم تكن هذه اللهجات القبلية او المحلية لتنعـدم وانما كانت تطل بين الحين والحين فنسمع للبيت أكثر من رواية ؛ أو نسمع له روايتين بلهجتين مختلفتين .

---

(١) انظر باب القول في اختلاف لغـات العرب في الصاحبي لابن فارس : ١٩ وانظر المزهر للسيوطي ١ : ٢٥٥ – ٢٦١ .

(٢) الصاحبي في فقه اللغة : ٢٣ .

وأما الذين يريدون أن يسمعوا هذه اللهجات في كل قصيدة وكل بيت ، وعلى لسان كل شاعر ، فاذا لم يجدوا لهـا أثراً حكموا بزيف الشعر المنسوب الى قائليه لأنهم أصحاب لهجات لم تظهر في أشعارهم ، فليسوا بأذكى ممن ينكر اليوم أوغداً كل ما يكتب باللغة العربية المتعارف عليها ، او يحكم بزيف كل المحاضر الرسمية للمؤتمرات العربية ولجلسات جامعة الدول العربية ... لان كل ذلك خال من اللهجـات العربية المحلية كالسورية والمصرية والعراقية والمغربية !! ولقد أجاد الدكتور ابراهيم انيس حين عبر عن هذا الامر بقوله : « نحن اذن أمام لهجات مستقلة ذات صفات خاصة تميزت بها القبائل العربية قبل ظهور ... الاسلام . فلما دعت الحاجة الى اتصال تلك القبائل في مواسم الحج قبل الاسلام ، والى عقد تلك المؤتمرات الثقافية التي سميت بالاسواق ، بدأت الحاجة الى وسيلة للتفاهم تجمع بين تلك القبائل . وهنا نشهد ما يحـدث عادة بين البيئات المنعزلة حين تبغي الوحدة ؛ اذ تتخذ مركزاً واحداً تتطلع اليه ، وتطمئن اليه ، لما يمتاز به من نهضـة في الثقافة او نفوذ سياسي . وليس هناك ما يقرب بين الجماعـات المتنافرة كاللغة الموحدة التي تجمع شملهم وتلم شتاتهم . فلما بدأت عوامل الوحدة السياسية والثقافية بين القبائل تهيأت كل الظروف لجعل مكة مركزاً لتلك الوحدة ، وبـدأ رؤساء القبائل يفدون اليها يحجون ذلك البيت الذي قدسوه قبل الاسلام ، كما وفـدوا للتجارة ، وليشهدوا منافع لهم في اسواق

كانت مجالا للثقافة بين القبائل ، فيها تعقد المناظرات الادبية والمساجلات من شعر او خطابة ، وليؤدي الخطيب رسالته كاملة واضحة ، وليترك سامعيه مشدوهين معجبين بقوله وبلباقته ، كان عليه ان يتحاشى تلك الصفات الخاصة التي تتصل بلهجة من اللهجات ، وان يتحدث الى القوم بلغة تواضعوا عليها وألفوها جميعاً .

كذلك كان لا بد لاولئك الشعراء الذين جاؤوا من بيئات متباينة ان ينظموا شعرهم بلغة خالية من عنعنة او عجعجة او كشكشة لينالوا إعجاب سامعيهم ولا يكونوا موضع سخريتهم وهزئهم ، وإلا فكيف كان من الممكن ان يُفَضَّل شاعر على شاعر في تلك المناظرات اذا كان المقياس مختلفاً ، وأداة القول متباينة .

لهذا توحَّدت القبائل في لغة أدبية ممتازة مختارة الالفاظ، يعمد اليها الشاعر والخطيب كلما عنَّ له القول ، وتلك كانت اللغة النموذجية ، لغة الخاصة من الناس، اللغة التي استحقت أن تروى آثارها ، ويعتز بها طويلا . وظلت مع هذا كل قبيلة تتمسك بلهجة كلامها في الخطاب العادي بين أفراد القبيلة بعضهم مع بعض . فالوحدة اللغوية بدأت قبل ظهور الاسلام ؛ بل نمت وازدهرت وعرف كثير من العرب من قبائل مختلفة بفصاحة القول وإجادة الشعر ، لان إتقان تلك اللغة الادبية كان موضع فخر بين رؤساء القبائل والخاصة من الناس ، يحاولون إتقانها ، والتفنن في نواحي القول بها [1] . »

(١) في اللهجات العربية ٣٢ - ٣٣ . وانظر أيضاً ص ٣٨ من الكتاب نفسه .

ولم تكن تلك اللغة المنتقاة المتعارف عليها سوى لهجة قريش لما كانت تتصف به من غزارة في المـــادة ، ورقّة في اللفظ ، وبُعد عن عيوب اللهجات . قال الفراء : « كانت العرب تحضر الموسم في كل عـام وتحج البيت في الجاهلية ، وقريش يسمعون لغات العرب فمـــا استحسنوه من لغـاتهم تـكلموا به،فصـاروا أفصـح العرب ، وخلت لغتهم من مستبشَع اللغات ومُستقبَح الالفاظ [1] .. » وروى الجاحظ أن معاوية سأل يوماً : مَن أفصح الناس ؟ فقال قائل : قوم ارتفعوا عن لخلخانية[2] الفرات ، وتيامنوا عن عنعنة [3] تميم ، وتيامروا عن كسكسة [4] بكر ، ليست لهم غمغمة [5] قضاعة ولا طُمْطُمانية [6] حِمْير . قال : مَن هم ؟ قال : قريش [7] . »

---

(١) المزهر ١ : ٢٢١ .

(٢) اللخلخانية : العجمة في المنطق . يقال : رجل لخلخاني ، اذا كان لا يفصح .

(٣) العنعنة : جعل الهمزة المبدوء بها عيناً .

(٤) الكسكسة : جعل السين مكان الكاف او بعدها في خطاب المذكر .

(٥) الغمغمة : الكلام غير البين .

(٦) الطمطمانية : عجمة في اللسان . ورجل طمطم : لا يفصح .

(٧) انظر في معرفة هذه اللهجات وترفع قريش عنها الخصائص ٢ : ١١ والمزهر ١ : ٢٠٩ – ٢١١ وانظر أيضاً باب « معرفة الرديء المذموم من اللغات » في المزهر، وأما رواية الجاحظ فانظرها في البيان والتبيين بتحقيق الاستاذ عبـــد السلام هارون ٣ : ٢١٢ .

وهكذا إذاً فقد مكنت قريشاً مكانتها التجارية ، وموضعها الجغرافي ، وسيطرتها على مكة ، من أن يكون لها ما ليس لغيرها من قبائل العرب ؛ فقوافل تجارتها أكبر القوافل وأغناها وأكثرها نشاطاً ، وأرضها مقصد القبائل في مواسم الأسواق ، وفي موسم الحج .. ، وفي كل مناسبة من مناسبات اللقاء هذه كانت اللغة عنصراً أساسياً من عناصر الاحتكاك بين قريش وغيرها ، وكانت الأسواق الأدبية أكثر تلك المناسبات ملاءمة للاحتكاك اللغوي .

(لقد كانت للعرب أسواق أدبية يقيمونها في مواسم معينة و يستعدّون لها ويتوافدون اليها من كل حدب وصوب ، وكانت عدة كل منهم في تلك الاسواق لسانه « يحمل الى السوق التهامي» والحجازي والنجـــدي والعراقي واليامي واليمني والعماني ... كلٌ ألفاظ حيّه ولغة قطره ؛ فما تزال عكاظ بهذه اللهجات نخلًا واصطفاء حتى يتبقى الأنسب الأرشق ، ويطرح الجفو الثقيل[1] . » أسواق العرب تلك أشبه بمؤتمرات أدبية أو معارض لسانية ، تخرج القبيلة فيها عن عزلتها ، ويسود فيها جوٌ من فصاحة اللسان ونصاعة البيان ، وهي اسواق عرف العرب فيها أول نوع من أنواع الوحدة ، وهي وحدة اللغة الأدبية التي امحت أمام جودتها وفصاحتها لغات القبائل المحلية ، فلم تظهر فيها كشكشة ولا عنعنة ولا طمطمانية .. وإنما كانت لغة مختارة

---

(١) أسواق العرب : ٢٤٢ .

منتقاة عرفتها القبائل يوم عرفت قريشاً ، وقريش أوسع القبائل نفوذاً ، وأكثرها نشاطاً ، فإلى أرضها يحج العرب ، وإلى بلادهم من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب تصل قوافلها وتجارهـا في رحلتي الشتاء والصيف . وكان للغة قريش أوفى نصيب في اللغة التي اختارها العرب لغة لأسواقهم الأدبية ولغتهم الموحدة .

يقول الأستاذ سعيد الافغاني بعد أن يعدد أحداثاً مما يجري في عكاظ من سياسة ومنافرة وحرب وتجارة وأدب : « ... والآن نستطيع ان نفهم لمَ يعد مؤرخو الأدب عكاظ في أول ما وحّد لهجات القبائل العربية قبل نزول القرآن الكريم بأكثر من قرن ، وهيأ لقريش خاصة تلك الزعامة والتحكم في اللغة والانتقاء فسلمت من عيوب اللهجات [1] . »

وتلك الوحدة اللغوية هي التي نزل القرآن فرسخها وأرسى قواعدها ، وذلك حين تنزلت آياته على ما عرف العرب - في نموذج اللغة الموحَّدة - من سنن القول وأساليب الخطاب [2]) .

ولو لم يوطد القرآن لهذه اللغة الموحدة أسبابها ، ويرسخ لها بنيانها ، لكان لها من لهجاتها القديمة والحديثة، ومما تتأثر به من عوامل مختلفة، لغات ولغات ... ولكانت العربية الفصحى كاللاتينية الأم ؛سرعان ما تنشأ عنها

---

(١) أسواق العرب : ٢٩٠ .

(٢) الموجز فى تاريخ البلاغة : ٢٥ — ٢٦ .

وعن لهجاتها المحلية لغات محلية سورية ومصرية وجزائرية وعراقية ويمنية .. تتباين وتتباعد تباعد الفرنسية والايطالية والاسبانية وتباينها حتى كأن لم يكن بينها نسب ، ولم تكن من أصل واحد .

ولا شك أيضاً ان القرآن الكريم بانتقاله مشافهة متواترة حفظ للعربية أصوات حروفها ، وضبط لها مخارجها وأحكام نطقها ، فنحن اليوم نختلف في نطق الحرف الواحد باختلاف لهجاتنا الاقليمية والمحلية ، فالجيم في الشام غيرها في مصر ، بل هي في نطق الدمشقي مختلفة عنها على لسان الحلبي ... فاذا رتل الشامي أو المصري ، والدمشقي أو الحلبي شيئاً من القرآن عاد بالحرف الى مخرجه الصحيح وأدّاه بصفاته الصوتية الاصيلة .

وهكذا فقد قامت بين اللغة العربية والاسلام صلات وصلات، يكثر تعدادها ، ويصعب حصرها وبيان منافذها ، ويستهجن في رأينا معها حساب الاحتمالات كأن نقول : لو لم تكن العربية لغة القرآن لكان كذا وكذا .. ! ، أو : لو أنزل القرآن بغير العربية لكان من شأنه كذا وكذا ولكان من شأن العربية كذا وكذا .. ذلك أن « لو » في مثل هذه الاحتمالات الغيبية لا تفيد ، وأن جوابها في مثل ذلك غير قاطع . وأما القاطع والمفيد فهو الواقع المشاهد ، والواقع فيما نحن بصدده أنه لا إسلام بلا قرآن ، ولا قرآن بغير العربية . إلا أن الامر يتفاوت بين مسلم يقرأ القرآن فيفهمه، وآخر يتلوه بلسانه فلا يعيه قلبه ولا عقله ، شأن كثيرين

من المسلمين غير العرب الذين حفظوا آيات من القرآن يرددونها بلفظها العربي في صلواتهم دون إدراك لمعانيها ، مع أن من الواضح ان تعلّم العربية فرض ، وان إتقانها واجب ، لأنه - كما قال ابن تيمية - ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . ثم إن العربية هي أقرب طريق إلى فهم الاسلام وإدراك معانيه ومقاصده من منابعه العربية الاصيلة .

لقد اتخذ الاسلامُ العربية لساناً له ، فإذا كان الايمان به هداية ونوراً ، كان الاسلام من ذلك النور طبيعته وحقيقته ، وكانت العربية منه المظهرَ الذي تراه العيون ، والصوتَ الذي تسمعه به الآذان ، والمسربَ الذي يسلك به الى القلوب والأذهان . وقد أدرك هذه الصلة بين العربية والاسلام على حقيقتها نفرٌ من أذكياء أعدائنا ، أعداء العرب والمسلمين ، فراحوا يُغطّون حقدهم على الاسلام بالطعن في اللغة العربية وهي الطريق المؤدية إليه ، يريدون بذلك أن ينهدم الجسر المؤدي بأهلها إليه ، وأن ينقطع ما بينها وبينه ؛ فكم من سهم وُجّه الى العربية لا يراد به غير الاسلام ، وكم من طعن وجّهه إلى الاسلام تعصبٌ أو حقد أو جهل وهو إنما يصيب أول ما يصيب في حقيقته اللغة العربية !

إن الإقلال من ساعات تدريس القرآن في المدارس الابتدائية مثلاً سهم يوجّه الى اللغة العربية في رأينا قبل أن يكون سهماً الى العقيدة

الاسلامية ؛ لأن الطالب في هذه المرحلة المبكّرة من عمره إنما يرى في القرآن ألفاظاً وجملًا وعبارات وأساليب ، ويكتسب من ممارسة قراءته عادة لغوية أكثر بكثير ممـــا يدركه فهمه القاصر من معاني القرآن وأفكاره ومراميه .

ونحن نذهب الى أبعد من ذلك فنقول إنه ليس مخلصاً للعروبة ولا للغتها ، وليس صادقاً في ادّعائه القومية العربية من لم يدعه إخلاصه لها وصدقه في حبها الى العناية بالقرآن وهو كتابها الأكبر ، ونموذج أدبها المعجز ، والكتاب الذي ما تجلّت لغة في الدنيا بمثل ما تجلّت به لغة العرب . ونقول كذلك : إنه ليس مخلصاً للاسلام ، ولا صادقاً في حب القرآن من لم يدعه إخلاصه وحبه للاسلام إلى العناية باللغة العربية - أياً كانت لغته الأم - لأن العربية لسان الدين الذي يخاص له ، ولغة القرآن الذي يحب .

ولا بد في هذا المقام من تنبيه الغافلين والمغفّلين على أن لغة كلغتنا العربية ليست مجرد أداة للتفاهم فيما بين الناس يسهل الاستغناء عنها أو استبدالُ غيرها بها ، إن الذين خدعهم تعريف بعض اللغويين للّغة حين قالوا : إن اللغة أداة يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، يجب أن يدركوا ان لغتنا لم تعد مجرد رموز تشير بها الى المسمّيات ، ولا مجردَ وسيلة للتعبير عن الأغراض ، وإنما هي عندنا أعلى من ذلك وأغلى ؛ إنها لغة

عاشت حياة أمتنا منذ أن تبلبلت بحروفها ألسن العرب إلى يوم الناس هذا ، فغدا بينها وبين الخاصين من الناطقين بها ما يشبه أن يكون صلة العضو بالعضو ، أوصلة الروح بالروح . إن في كل حرف من حروف لغتنا العربية وفي كل لفظ من ألفاظها معيناً من الذكريات . . . لقد امتلأت بتاريخنا ، واستوعبت تراثنا ، وارتسمت بألفاظها حضارتنا ، ونطق بها فكرنا حتى شفَّت عنه فلم يعد التفريق ممكناً بين الرمز ودلالته أو بين اللفظ ومضمونه . إن اللفظ من لغتنا ليس مجرد نبرة من صوت ، وإنما هو قطعة من فكر الأمة ، ونبضة من قلبها ، بل هو شحنة غنية فيه من كل عصر عاشه أو عاشته أمتنا أثر من تاريخ وقبس من فكر وطاقة من وجدان . إن ألفاظ العربية اليوم ليست مجرد قوالب جافة للأفكار ، وإنما هي الصور الناطقة لتلك الأفكار ، ولقد أدرك الواعون من العلماء في القديم والحديث هذه الصلة الروحية العميقة بين اللغة والناطقين بها فكان مما نبَّهوا عليه أن لغة المرء عادة تؤثر في عقله وخُلقه ، بل لقد كان في تصرف المحتلين فيما تحت سلطتهم من مناطق نفوذ لهم أكبر دليل على إدراكهم هذه الحقيقة واستغلالهم إياها مما جعل الصراع اللغوي مظهراً واضحاً من أبرز مظاهر الصراع بين الغزاة المحتلين من جهة والوطنيين من أصحاب البلاد المحتلة من جهة ثانية . فلقد بذل الانكليز مابذلوا من جهد وكيد حتى مكنوا للغتهم في الهند ،

وزاحموا بها لغة البلاد الأصلية في كثير من مستعمراتهم . وبذل الفرنسيون مابذلوا من جهد ومال ونار ليحلوا لغتهم محل العربية في الجزائر . . . وهم على عكس ذلك مازالوا يبذلون الكثير من الجهد في سبيل الحفاظ على لغتهم في مقاطعة (كيبك) بكندا ، حيث كاد الفرنسيون يضيعون بين اكثرية لا تنطق بلغتهم ، فلم يجدوا وسيلة تعصمهم من الضياع ، وتمسك على أجيالهم شخصيتها وأصالتها ، وتحول دون ذوبانها في غيرها ، سوى اللغة يعتصمون بها ويجتمعون عليها . . .

وليس بعيداً عنا ما فعله قادة الأتراك حين أرادوا الفصل بين الشعبين العربي والتركي ، وأرادوا الحيلولة بين الأتراك والاسلام ، فبادروا أول ما بادروا إلى العربية يُبعدونها ، وإلى التركية يحيونها ، ليقطعوا الآصرة بين شعبين يدينان بدين واحد ، ثم ليقطعوا الطريق بين الشعب التركي والمصادر العربية لدينه .

وهكذا فان بين العربية والقرآن صلات لاتُدفع ، وأواصر لاتقطع ؛ إنها منه صوته وصورته ، وإنه منها نموذجها الأدبي واسلوبهـــا الأمثل . وإنه لايطعن في العربية باسم الاسلام إلا شعوبي ، ولا يطعن في الاسلام باسم العربية إلا جاهل او غبي .

في تعليم اللغة العربية لغير العرب [1]

لا يخفى ما للغة اليوم من منزلة في حياة الأمم ، وما لوظيفتها من أهمية في مجال التفاهم الانساني . ونحن لسنا الآن بصدد تعليم اللغة القومية ، أعني اللغة العربية لأبناء العرب مثلا ، وانما نريد تعليم اللغة لغير أبنائها .

إن الامم الواعية اليوم تسعى جاهدة لنشر لغاتها وتبسيط قواعدها . وقد أصبح التأليف اللغوي الخاص بالاجانب أمراً شائعاً معروفاً عند كثير من الامم ، كما أن المكاتب أو المراكز الثقافية لمختلف الدول أصبحت منتشرة في جميع أنحاء العالم تنشر لغات الدول التي تنتسب إليها وتتنافس على جذب الطلاب وإغراء المتعلمين . .

ولا شك أن لغتنا هي أقرب طريق الى أفكارنا ، وإن الأجنبي الذي نعلمه لغتنا يصبح أكثر قابلية لتفهم أفكارنا ، كما أن أفكارنا نفسها تصبح أسهل تناولاً لديه . بل لعلنا نستطيع أن نقول إننا حين نعلم أجنبياً لغة العرب فقد ضممنا إليهم صديقاً ، إننا جعلناه قادراً على أن يفهم أفكارنا مباشرة عنا دون أن تصل اليه مشوهة أو محرفة في غير لغتنا ، إننا بنينا له جسراً الى تراث العرب ،ونافذةيطل منها بنفسه على حياتهم الفكرية . ومن هنا نعود لنقول إن الامم التي تتنافس على نشر لغاتها بتسهيل تعليمها وتقديم المنح والكرامي الجامعية لمن يرغب في الدراسة والتعلم ، وتتنافس على

(١) بحث نشر في مجلة المعلم العربي بدمشق (السنة ٢٠ العدد ٤ و ٦ والسنة ٢١ العدد ٣) .

الاستزادة من المراكز الثقافية والانفاق عليها وتزويدها بالمكتبات الجامعة والكتب الهادفة ، انما تتنافس في الحقيقة على جذب الأصدقاء وكسب عواطف المتكلمين بلغاتها .

ولقد كان افتتاح مدرسة لتعليم اللغة العربية للأجانب في جامعة دمشق خطوة موفقة في هذا المجال القومي ، إلا أن مجرد افتتاح هـــذه المدرسة وحده لا يكفي لتحقيق الغرض الذي نريد ، بل لابد من أن تتبعها خطوات جادة تساعد المدرسة على أداء رسالتها في نشر العربية بين غير العرب .

وهل علينا من حرج إذا نحن أذعنا ـ ونحن ندرك أن المدرسة انما تعتمد بعد المدرسين الأكفياء على الكتاب ـ أننا لا نعرف في العربية ، حتى الآن ، كتاباً لتعليم الأجانب اللغـــة العربية مؤلفـــاً على أسس تربوية وقومية مدروسة ! !

إن العـــالم العربي اليوم في أشد الحاجة الى كتاب لغوي مبني على أساس تربوي علمي يحدد لنا مثلاً المفردات العربية الكثيرة الاستعمال ، والالفاظ اللازمة والكافية ، مصنفة على أساس الموضوعات ، ويحدد لنا عدداً من التراكيب اللغوية المستعملة .

إننا في حاجة الى كتاب تربوي تدريسي يعالج مشكلة تعليم غير العرب ، ويقترح الحلول ، وينير السبل ، ويعرض التجارب والنتائج ... إننا في حاجة الى كتاب يبحث فيما ينبغي أن يتعلمه الاجانب من لغتنا ، وكيف ينبغي

أن يتعلموه ، ويحدد المراحل المتدرجة لتعليمهم ، وقـد بلغنا ان جامعة الدول العربية تبذل اليوم جهوداً مشكورة في هذا السبيل .

ونحن في حاجة ايضاً الى مدرسين أكفياء ، إذ ليس كل مدرس قوي في مادته ، صالحاً لتدريس الأجانب ، بل لا بدّ لمدرس الأجانب ، الى جانب قوته في مادته ، من نطق سليم ، ومخارج صوتية واضحة ، وتجربة كافية .

ونحن في حاجة الى دروس لغوية متدرجة مسجلة على أشرطة ،ليستعين بها الراغبون من الأجانب في تعلم العربية ، ونحن نذكر ان الأشرطة كانت عوناً لكثيرين ممن أتقنوا اللغة الانكليزية .

وإن الإذاعة نفسها تستطيع أن تقدم في هذا المجال عوناً كبيراً عن طريق إذاعة دروس خاصة بتعليم اللغة العربية للأجانب يكتبها متخصصون ، ويذيعونها بأصوات واضحة ومخارج صحيحة .

على أن الأمر الذي ينبغي التنبيه عليه هو أن طبيعة تدريس اللغة العربية لغير العرب مغايرة لطبيعة تدريس العربية لأبنائها ، ولا بدّ لمن يقوم بتدريس اللغة لغير أبنائها من ملاحظة أمور تفرضها طبيعة هـذا النوع من التدريس ، وهي أمور تتجلى أول ما تتجلى في الفروق البعيدة بين تدريس العربية لأبناء العرب وتدريسها لغيرهم .

١ - ملاحظات حول تعليم الخط العربي لغير العرب :

لابدّ أن نلاحظ ، ونحن نعلم الأجانب الخط العربي ، ذلك الفرق

البعيد بين أبنائنا الصغار الذين نعلمهم صور الحروف دون أن تكون لديهم فكرة سابقة عن رسم الحروف وبين الأجانب الذين يعرفون لغة أو أكثر غير العربية .

إن الذي يعرف لغة ما ثم ينتقل الى تعلم لغة ثانية لابدّ أن يلجأ ذهنه الى الموازنة بين اللغتين : اللغة التي يعرف ، واللغة التي يتعلم . ولعل هذا يتضح في مجال نطق الحروف ، فاذا طلبت الى أجنبي أن يلفظ حرفاً عربياً له شبيه في لغتـه استجاب لك ونطق بالحرف الذي طلبت ، وأما إذا طلبت إليه أن يلفظ حرفاً لا يعرفه في لغته أصلاً تعثر ولجأ الى أقرب الاصوات مشابهة له في لغته ، اطلب اليه مثلا أن يلفـــظ (الضاد) لتراه يسرع به نحو مخرج أقرب الحروف اليه فاذا الضاد على لسانه دال مفخمة . وكذلك (الحاء) عنده (هاء) حارة عميقة . .

ولما كان الخط صورة للأصوات ورسماً لها فلا بدّ أن نبدأ بتعليم للأصوات (أو الحروف) ومخارجها ، وقد تبين لنا بنتيجة الممارسة العملية لتعليم الخط العربي لنفر من طلابنا في مدرسة تعليم اللغة العربية للأجانب أن هناك ملاحظات لابد أن نأخذها بعين الاعتبار ، وأن نلاحظ ضرورة التدرج فيها أيضاً . ومن هذه الملاحظات :

١ ــ أن نبدأ بتعليم حروف المد صوتاً أو نطقاً ، وكتابة ، فنعلمهم كيف ينطقون حروف الـ (آ ، و ، ي) الممدودة وكيف يكتبونها .

٢ – وان نتبع حروف المد بتعليم الحركات ،وهي الأصوات القصيرة لتلك الحروف الممدودة ، كما أن بعضها هو الصورة المصغرة في الشكل أو الرسم لصورة ذلك الحرف الممدود كالضمة (ـُ) التي هي من حيث الشكل واو صغيرة .

ونضيف هنا تعليم السكون (ـْ) الذي هو هدوء في الصوت وانقطاع أو جزم لتلك الحركات جميعاً .

ونقف هنا وقفة طويلة لننبه على أن هـذه الحركات أصوات تلفظ ولا تكتب ، وهـذا موطن زلل الكثيرين من الأجانب حين يكتبون العربية ، إذ يظنون لكل صوت صورة فيكتبون (مينبار) بدل (منبر) و (كيتاب) بدل (كتاب) ... وهكذا .

٣ – وقبل أن ننتقل الى مرحلة جديدة نقف عند الالف لنعلمها لينة ومهموزة ، ونتحدث عن الهمزة (ء . أ) منبهين على الفرق بين الالف الممدودة في مثل باب ، كتاب . والهمزة في مثل رأس ، أخذ ، بدأ ... والهمزة الممدودة أو المدغمة بهمزة ثانية مثل آخر ، آكل ، بل لا بأس ان نعطي كلًا من الحرفين على حدة لفظاً وكتابة .

٤ – ونتابع اعطاء الحروف ، صوتا وكتابة ، بحسب التسلسل الهجائي على أن نعطي مع كل حرف جميع أشكاله أو صوره ، سواء وقع في أول الكلمة أم وسطها أم آخرها . مثل (يـ ، ـيـ ، ي .) و (عـ ، ـعـ ، ـع ، ع) .

٥ – ومن الواجب حين نعطي الحروف المتشابهة شكلاً أو رسما أن ننبه على أن الاختلاف فيما بينها راجع الى مكان النقط وعددها مثل (ب ، ت ، ث) و (ج ، ح ، خ) و (د ، ذ ،) و (ر ، ز .) و (س ، ش) و (ص ، ض) و (ط ، ظ) و (ع ، غ) و (ف ، ق) .

٦ – وننتقل بعد اعطـــاء فكرة عن الحروف المتشابهة رسما الى الفروق الصوتية بين الحروف المتشابهة أو المتقاربة نطقا ، فنميز لهم في الصوت بين :

(ت) و (ط) ، وبين (ث) و (ز) و (ذ) ، وبين (ذ) و (ظ) ، وبين (د) و (ض) . وذلك لان الفارق الصوتي هو الذي يعين الصورة الكتابية للحرف .

٧ – وننتقل بعـد تعليم صور الحروف مفردة الى تعليم ربـــط الحروف بعضها ببعض ، فننبه على أن بعض الحروف قابلة للوصل خطاً من طرفيها كالباء : بلد ، جبل ، حلب . وقابـــلة للفصل في مثل : كتاب . وان هناك حروفا لاتقبل الوصل الا بما يسبقها مثل : ر ، ز ، ذ ، د . وأما طرفها الثاني فيبقى سائبا أينما وقعت : درس ، ضرب ، نزل ، بذل ، لذيذ . . .

٨ – ونختتم هـذه المراحل بالحديث عن سائر الحركات التي لم يسبق

أن تحدثنا عنها كالتنوين بجميع حالاته، وكالشدة (ّ) و (الـ) التعريف، مع ذكر معانيها .

٢ً – ملاحظات حول تعليم اللغة العربية لغير العرب :

١ – ان الذين نعلمهم اللغة العربية من أبنائنــا اطفال صغار ، لذلك فان معلميهم يقدمون لهم أبسط المفردات وأسهل الجمل واوضح الأفكار ، وذلك واضح في كتب القراءة المؤلفة لهم . ,وأما الأجانب الذين نعلمهم العربية فكبار سناً ناضجون عقلا ، ولا تلائمهم تلك الكتب المؤلفة للناشئة الصغار ؛ انها لاتناسب عقولهم ولا تشبع رغباتهم ولا تساير مستوى تفكيرهم وإدراكهم .

٢ – إن الأطفال العرب حين نعلمهم لغتهم فنحن إنما نعلمهم أوليات معارفهم ، أما الأجانب الذين يرغبون في تعلم العربيـة فكثيرون منهم يحملون مؤهلات عالية ، وكثيرون منهم يتقنون أكثر من لغة ،ولذلك فسرعان ما يربط أحدهم بين مايلقيه عليه المعلم العربي وما يقرره له من قواعد اللغة وأحكامها وبين مـــا هو مختزن في ذهنه أصلًا من قواعد وأحكام لغوية ، إنه يقارن الحروف ومخارجها ، والمفردات ونطقهـا ، والتراكيب وطبيعتها ... وكل ما يلقى عليه بنظيره في لغته أو في غيرها من اللغات التي يتقن .

٣ – إننا نبدأ حين نعلم الأطفـــال العرب لغتهم بتعليمهم الحروف

نطقا وكتابة ، ثم ننتقل بهم الى تعلم الكلمات التي تتشكل من تلك الحروف ، ثم الى الجمل التي تتألف من تلك الكلمات ... وأما حين نبدأ بتعليم الكبار من غير العرب فقد نبدأ بتعليمهم الكلمات أولاً ثم نعلمهم الجمل ثانياً ، ونعود بعد ذلك الى عمل تحليلي نعلمهم من خلاله ما احتوت عليه تلك الكلمات من الحروف . وقد وجد كثير من المدرسين الذين مارسوا تعليم اللغة العربية للأجانب أن هذه الطريقة الكلية أسرع مجتنى وأعود نفعاً وأكثر جاذبية للمتعلمين من طريقة البدء بتعليم الحروف .

٤ – إننا نتابع تعليمنا للأطفال حتى يكبروا ، ولذلك فنحن نضع لهم المناهج المتدرجة ، ونسعى ليكون تعلمهم للغة شاملاً لجميع جوانبها نطقاً وقراءة وكتابة وفهماً ، فلا نقبل لأحدهم أن يجيد الكتابة – إذا أجادها – دون إجادة النطق الواضح والتلفظ الصحيح ، ولا نكتفي منه بحسن النطق وجودة الأداء دون إتقان الكتابة وسلامة الفهم .

إننا نسعى لنصل بهم إلى المستوى الكافي الذي يتمكنون فيه من استعمال لغتهم وفهمها مسموعة ومكتوبة .

وأما الأجانب الذين نعلمهم لغتنا في سنة أو سنتين أو أكثر فقد يكون ما نزودهم به من ثقافة لغوية هو آخر ما يتزودون به ، وقد لا تبقى بينهم وبين لغتنا بعد ذلك من صلة سوى ما يقع تحت أيديهم من صحف أو مجلات أو كتب ، وقلَّ من تهيىء له ظروفه منهم ممارسة التحدث بلغتنا ، لذلك

فلن نكون بعيدين عن الصواب حين نطلب الى من يتصدى لتعليم الأجانب اللغة العربية أن يبذل جهده ليعلم الأجانب قراءة لغتنا وفهم ما يقرؤون بها أكثر مما يبذله ليعلمهم جودة النطق ومخارج الحروف. ولعل الذي تتيح له ظروفه منهم أن يعيش بعد ذلك بين العرب يستطيع أن يتقن العربية ويجود النطق بحروفها. وغير خاف أن إجادة النطق بالاصوات اللغوية تحتاج الى طول ممارسة وكثرة مران.

٥ – لما كانت غايتنا من تعليم الاجانب لغتنا هي ان يفهموا أفكارنا ويطلعوا على تراثنا ويتذوقوا أدبنا، دون أن ينقل ذلك إليهم بلغاتهم، لئلاتحرف الترجمة فيه، أو تقصر في نقله، أو تشوه من جماله، ولمّا كان فكرنا وتراثنا وأدبنا مسجلًا كله باللغة العربية الفصحى فانه لم يعد ثمة داع لتعليم الأجانب اللغة العامية.

صحيح ان الكثيرين من الأجانب يبدون اهتمامهم البالغ باللغة العامية في كل قطر عربي، وصحيح أن بعض المغفلين، أو الذين لا تعنيهم المصلحة القومية من المنتفعين أخذوا يجارونهم في اهتمامهم، وأخذ بعضهم يؤلف الكتب بالعامية، وأخذ بعضهم يضع لهم بها المعاجم!! إلا أن ذلك يجب ألا يحول دون إعلان الحقيقة والتنبيه على ما في ذلك من الخطر.

نعم إن اللغة الدارجة أو العامية قد يحتاج اليها الأجنبي عندنا للتفاهم مع من يعاملهم من بائعين أو من هم في طبقتهم، ولكنها حاجة موقتة أولاً،

وهي ثانياً لا تحتاج الى جهد وتعليم ، فلقد علمتنا التجربة أن هـذه اللغة سرعان ما يلتقطها الاجنبي من أفواه الناس ، وسرعان ما يحسن التفاهم بها ، كما علمتنا التجربة ان هذا الاجنبي الذي تفاهم مع الناس بلغتهم قـد عجز عن قراءة صحفنا بله أدبنا وتراثنا ...

ان الاهتمام باللغة العامية إنمـــا يفيد منه بعض ذوي الأغراض من الأجانب ، وأما الذين يهمهم أن يعرفوا اللغة ليعرفوا أهلها وليطلعوا على أفكارهم فلن يكون اهتمامهم بغير اللغة الفصحى ، لأنها وحدها في بلاد العرب لغة الصحف والمجلات ، ولأنها وحدها اللغة التي يجتمع عليها المثقفون العرب أينما وجدوا ، ولأنها وحدها ـ بعد ذلك ـ اللغة التي تبقى مع من يتعلمها من الأجانب ذخراً يفيـده في بلاده ، وجسراً يصل بينه وبين ما يذاع وينشر في بلاد العرب .

وقفة عند المنجد

مع المعجم العربي : ١ - في القديم :

للمعجم العربي تاريخ طويل، لأن العناية به جانب من عناية العرب بلغتهم ، وعناية العرب بلغتهم واهتمام علمائهم بهـا أمر اشتهروا به بين أمم الأرض جميعا ؛ لقد نفرت طائفـة من علمائهم تجمع اللغة وتدون ألفاظها ، ثم نفرت طائفة تجمع الألفاظ وترتبها بحسب موضوعاتهـــا ، فكانت لهم في ذلك كتب أو رسائل في الخيل والإبل والشجر والنبات والوحوش وغيرها ، ثم ظهر علماء وصلوا بجمع اللغة الى مرحلة التصنيف المعجمي فرتبوا ألفاظها على أســـاس معجمي ، فمنهم من رتبها بحسب مخارج حروفها ، ومنهم من رتبها بحسب تسلسلها الهجائي ، وتتابع العلماء يبذلون في وضع المعجمات جهوداً عجيبة في الجمع والاستقصاء ثم في الضبط والتحري . وحسبنا لمعرفة مابذلوا من جهـد وما أفنوا من قرون أن نمر بأسماء طائفة من أعلامهم ذاكرين ماوضعوا من معجمات .

وضع الخليل بن أحمد الفراهيدي (المتوفى سنة ١٧٠) كتاب العين .

ووضع ابن دريد (٣٢١) هـ كتاب الجمهرة

ووضع الأزهري (٣٧٠ هـ) تهذيب اللغة

ووضع ابن فارس (٣٩٥ هـ) مقاييس اللغة

ووضع الجوهري (٤٠٠ هـ) الصحاح

ووضع الزمخشري (٥٣٨ هـ) اساس البلاغة

ووضع ابن منظور (٧١١ هـ) لسان العرب

ووضع الفيروزابادي (٨١٧ هـ) القاموس المحيط

ووضع الزبيدي (١٢٠٥هـ) تاج العروس

ووضع لغويون كثيرون معجمات أخرى كالبارع للقالي ٣٥٦هـ والمحكم والمخصص لابن سيده (٤٥٨) إلى كتب أخرى كثيرة في اللغـة وما فيها من أضداد ومترادفات . . . ومعجمات أخرى كانت تهذيباً أو اختصاراً لبعض المعجمات الكبيرة السابقـة كمختار الصحاح للرازي (٧٨٠ هـ) .

وليس من غرضنا في هذا البحث أن نقف عند هذه المؤلفات اللغوية أو نعددها أو نتحدث عن مناهجها وعما فيها من محاسن أو مساوىء [٢] ولكن الذي يعنينا منها أن نحدد من خلالها غرض المعجم العربي أولاً ، وأن نرى ثانيـاً مدى ما تقدمه بين يدي مادتها من توثيق لمـا تروي وتنقل .

أما الأمر الأول فنستطيع تحديده بقولنا إن غرض المعجم العربي

---

(١) تجد ذلك مفصلاً في كتاب (المعجم العربي) للدكتور حسين نصار ، وكتاب (المعاجم العربية) للدكتور عبد الله درويش .

أن يحصر مفردات اللغـــة وينبه على مافيها من دخيل ، أو أن يجمع صحاحها ، أو أن يضع بين أيدي الباحثين مفردات اللغـة سواء كانت تشترك بمادة لغوية واحدة أم كانت تشترك بموضوع واحد . ولم يكن من غرض تلك المعجمات أن تكون خاصة بالطلاب الناشئين ، فلـم يأخذ اصحابها بعين الاعتبار موضوع الحجم أو موضوع القيمـــة المادية للمعجم .

وأما الأمر الثاني ، وهو أمر توثيق المادة اللغوية ، فقد كانوا فيه على جانب من الحرص عظيم ؛ لقد كان أحدهم يشعر أمام اللفظة بما يشعر به ناقل الحديث النبوي من حرج يجعله لاينطق بالحرف إلا مسنداً إلى قائله ، أو معزوّاً الى راويه ، أو مؤيداً بالشاهد والدليل . ولقد كانوا على جلالة قدرهم وعلوّ منزلتهم في اللغة ـ يصدرون معجماتهم بخطب طويلة يذكرون فيها شيوخهم وما عوّلوا عليه من المصادر والمراجع، بل لقد كان بعضهم يقوّم المصادر التي اعتمد عليها فيعدّل ويجرّح ، ويمدح ويقدح ، محكّمين في ذلك المقاييس اللغوية والشواهد المنقولة ... وهم إنما يفعلون ذلك لينالوا الثقة ، ولتحظى مؤلفاتهم بالقبول ، ولتكون اللغـــة ـ قبل ذلك وبعده ـ في منـأى عن الكذب والتحريف والتصحيف . قال الأزهري في مقدمة تهذيب اللغة : « ولم أودع كتابي هذا إلا ما صح لي سماعاً منهم ، أو رواية عن ثقة ، أو حكاية عن خط ذي معرفة ثاقبـة

اقترنت إليها معرفتي » . وأما ابن دريد فقد سمّى معجمه بالجمهرة لأنه استعار له الجمهور من كلام العرب ، وأخر ذكر الوحشي والمستنكر . وكذلك فعل الجوهري الذي كان اسم معجمه (الصحاح) عنواناً لعمله اللغوي فيه ؛ قال الجوهري في مقدمة (تاج اللغة وصحاح العربية) : « أما بعد ، فإني قد أودعت هذا الكتاب ماصحّ عندي من هذه اللغة التي شرف الله منزلتها ... بعد تحصيلها بالعراق رواية ، وإتقانها دراية ، ومشافهتي بها العرب العاربة ، في ديارهم بالبادية [١] » .

ولجأ ابن منظور الى ذكر المصادر التي عول عليها ، وذكر رأيه فيها ، وقدم بين يدي معجمه خطبة تغني عن غيرها بما حوت من توثيق ونقد وتواضع ؛ فلقد رأى ابن منظور علماء اللغة بين رجلين ؛ رجل أحسن الجمع ولم يحسن الوضع (الترتيب) ، ورجل أجاد الوضع مع رداءة الجمع ، ولم يجد في كتب اللغة أجمل من تهذيب اللغة للازهري ، ولا أكمل من المحكم لابن سيده ، إلا أن الناس أهملوهما لوعورة المسلك وسوء الترتيب ، ورأى الجوهري قد أحسن ترتيب معجمه إلا أنه كالذرة في جو اللغة ، وكالقطرة في بحرها ، ثم إن فيه تصحيفاً وتحريفاً ، فجمع (لسان العرب) ولم يخرج فيه عما في تلك الأصول ، فجاء واضح المنهج

---

(١) الصحاح ١ : ٣٣

سهل السلوك جامعاً من اللغات والشواهد ما لم يجمع مثله مثلَه ؛ لأن كل واحد من هؤلاء العلماء انفرد برواية رواها ، وبكلمة سمعها من العرب شفاها ، ولم يأت في كتابه بكل ما في كتاب أخيه ...فصارت الفوائد في كتبهم مفرقة ، فجمع ابن منظور منها في كتابه ما تفرق ، ثم قال : « وأنا مع ذلك : لا أدعي فيه دعوى فأقول شافهت او سمعت أو فعلت او صنعت أو شددت او رحلت ، او نقلت عن العرب العرباء او حملت ، فكل هذه الدعاوى لم يترك فيها الأزهري وابن سيده لقائل مقالا ، ولم يخليا فيه لأحد مجالا ، فانهما عيَّنا في كتابيهما عمن رويا ، وبرهنا عما حويا ... ولعمري لقد جمعا فأوعيا ، وأتيا بالمقاصد ووفيا . وليس لي في هذا الكتاب فضيلة أمت بها ولا وسيلة أتمسك بسببها سوى أني جمعت فيه ما تفرق في تلك الكتب من العلوم ، فمن وقف فيه على صواب او زلل ، أو صحة أو خلل ، فعهدته على المصنف الأول ، لأني نقلت من كل شيء مضمونه ، ولم أبدل منه شيئاً ، بل أديت الأمانة في نقل الأصول بالفص ، وما تصرفت بكلام غير مافيها من النص ، فليعتد من ينقل عن كتابي هذا انه ينقل عن هذه الأصول الخمسة [1] » .

وكذلك صنع الزبيدي في خطبة (تاج العروس) بل لقد زاد

---

(١) مقدمة (لسان العرب) . وهو يعني بالأصول الخمسة : تهذيب الأزهري ، ومحكم ابن سيده ، وصحاح الجوهري ، وأمالي ابن بري ، ونهاية ابن الأثير .

فذكر النسخ التي اعتمد عليها من بعض الكتب ، ووصف نسخته من صحاح الجوهري ، ومحكم ابن سيده ، ولسان العرب لابن منظور .

٢ - في العصر الحديث :

نظر المحدثون الى تلك المعجمات المتقدمة فرأى بعضهم أنها لم تعد كافية لسد الحاجة ، فقد مضت عليها قرون ، وجدّت بعدها مخترعات ، وشعر الناس بالحاجة الى معجم جديد يستوعب لغة العصر ، ولا يضيع الباحث فيه في زحمة الألفاظ القديمة ...

ورأى بعضهم أن المعجمات القديمة عسيرة التناول ، فهي فوق حاجة الطالب حجماً وفوق طاقة جيبه ثمنا ...

ورأى بعضهم أنها صعبة القيـــاد وعرة المسلك ، لايستطيع من لم يتمرس بها أن يصل إلى ضالته فيها بيسر وسهولة ، فهي مرتبة بحسب الأصول المجردة للكلمات ، ولا يدرك الباحث فيها غايته مالم يكن على علم بالمجرد والمزيـد . ونظر المحدثون إلى المعجم الأوربي الحديث فرأوا فيه سهولة في الترتيب ، وصغراً في الحجم ، وأناقة في الشكل ، فأرادوا المعجم العربي مثله سهولة وحجماً وأناقة .

والحق أنه كان ينبغي أن تلبّى هذه الحاجة ، وأن يوضع في متناول أيدي الطلاب وغير المختصين معجم عربي واضح المنهج ، سهل الطريقـة صغير الحجم .

وليس هناك ما يمنع من تطوير المعجم العربي أو تجديده ، وتهذيبه أو الاضافة إليه ، ولكن في نطاق الأصول اللغوية الخاصة باللغة العربية، وفي نطاق القواعد والأحكام التي تتلاءم مع طبيعتها .

وبذلت جهود جديدة، وظهرت معجمات جديدة، منها : (محيط المحيط) ثم مختصره (قطر المحيط) لبطرس البستاني المتوفى سنة ١٨٨٣ م و (أقرب الموارد في فصح العربية والشوارد) لسعيد الشرتوني المتوفى سنة ١٩١٢ م و (والمنجد) للأب لويس معلوف المتوفى سنة (١٩٤٦ م) وقد ظهرت الطبعة الاولى منه عام ١٩٠٨ م و (البستان) ثم مختصره (فاكهة البستان) لعبد الله البستاني المتوفى سنة ١٩٣٠ م .

وواضح ان (محيط المحيط) -وقد طبع في سنة ١٨٧٠ م -من أوائل المعجمات الحديثة ظهوراً ، وأن صاحبه اعتمد فيه على (القاموس المحيط) للفيروزابادي ، ولكنه لم يقف عنده بل تجاوزه الى زيادات كثيرة عثر عليها في كتب القوم ، واصطلاحات لابد منها لكل مطالع [1] وألفاظ كثيرة من اللغة العامية والمعاني المسيحية ؛ فهو كثيراً ما يذكر الكلمة ويفسرها ثم يقول وهي من كلام العامة . أو يقول : وهي من مصطلحات النصارى . أو يقول : وهي يونانية . أو تركية . ولم يكن البستاني نفسه مؤهلاً لمثل هذا العمل اللغوي ،لانه لم يكن يملك اللغة

---

(١) مقدمة (محيط المحيط)

التي يضع المعجم لألفاظها ، بل كانت في لغته عامية وركاكة ولحن وتأثر في تعبيره بالأساليب الأجنبية التي يتقن لغتها ، وقد ظهر ذلك في مثل قوله في مقدمة محيطه : إنهم « يتخذونه كخدمة جزئية . . . . » وفي كثير من مقالاته ورسائله [1] .

---

(١) لقي أسلوب البستاني استهجاناً عند عارفي اللغة العربية وأساليبها حتى نعته الامام الشيخ محمد عبده بالغرابة في بابه ! لما كان يتصف به من ركاكة وضعف وما يشيع فيه من لحن وعامية .

أما (محيط المحيط) فيرى بعض الباحثين أنه لا إبداع فيه ولا ابتكار ، وانما هو موضوع على مثال سابق . يقول الاستاذ عبد اللطيف الطيباوي في مقاله (المعلم بطرس — البستاني) : وأظهر بحثنا أيضاً أن المعلم على اجتهاده وكثرة آثاره ظل في الغالب متبعاً لا مبتدعاً . وهذا واضح في قاموس « محيط المحيط » الذي وصفه مؤلفه بأنه لم ينسج على منواله. فالحقيقة أن هذا القاموس نسج على منوال آخر ألفه جبريل فرحات وطبع في مرسيليا سنة ١٨٤٩ بعنوان «إحكام» باب الاعراب عن لغة الاعراب » . ومقدمة هذا الكتاب تذكر انه كان اختصاراً وتبسيطاً لقاموس الفيروزابادي. وعنوانه بالفرنسية « Dictionnaire « Arabe » لا يترك مجالا للشك في موضوعه . وهذا بالضبط هو ما أخرجه المعلم بطرس بعد نحو عشرين سنة كما هو واضح من مقدمة الطبعة الاولى من محيط المحيط ، التي تقول انه مبني على الفيروز ابادي .. (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد ٤٥ ، ص ٦٠٧) .

أما طبع « محيط المحيط » فقد تعاورت عليه مطبعتان ، اذ طبع قسم منه في المطبعة الامريكية ببيروت ، وطبع قسمه الآخر في مطبعة المعارف التي أسسها صاحب المحيط مع خليل مركيس سنة ١٨٦٧ ، اي قبل انجاز طبع المحيط بثلاث سنوات . ويبدو ان البستاني لم يكن على وفاق مع مدير المطبعة الامريكية وان خلافاً ما كان منذ البدء قائماً بينهما .

ولعل من المفيد هنا أن نذكر أن المطبعة الامريكية أقيمت في بيروت لتطبع الكتب

ويبـــدو أن عمل البستاني في محيطه وقطر محيطه كان بعيد الأثر في المعجمات التي ظهرت بعده ؛ فلقد سارت على خطاه ودخلت من الباب الذي

المدرسية التي تستخدمها البعثات التبشيرية الامريكية في مدارسها وان هذه البعثات استخدمت عدداً من نصارى العرب في لبنان للمساعدة في أعمال الترجمـــة والتأليف والتدريس وأنـــه كان من هؤلاء ناصيف اليازجي وبطرس البستاني ، وان صلة البستاني خاصة بالبعثة البروتستانتية الامريكية كانت قوية حتى انـه اعتنق المذهب البروتستانتي على يد القس الامريكي Eli Smith الذي عمل معه في ترجمـة التوراة . وكان سمث رئيساً للجنة التي ألفها المبشرون الامريكان سنة ١٨٤٧ لترجمة التوراة . ولذلك بادر البستاني الى الكتابة اليه حين وقع الخلاف بينه وبين مدير المطبعة الامريكية حول طباعة معجمه « محيط المحيط » (انظر تفصيل ذلك مع نماذج جديدة من أدب اليازجي والبستاني في مقال الاستاذ عبد اللطيف الطيباوي في مجلة مجمـع اللغة العربية بدمشق المجلد ٤٣ ص ٣٢٦ والمجلد ٤٥ ص ٥٩٥) . وانظر رســـالة البستاني وصورتهـــا فيما يلي : ففيها حديثه عن معجمه ، وفيها نموذج من كتابته وخطه .

جناب سيدي الجليل المحترم :

غب لثم يديكم وسؤال شريف خاطركم ، أعرض أنني سابقاً تكلمت مع جنابكم عن طبـــع قاموس عربي مختصر لفايدة المدارس والعموم بصروفي على ترتيب القواميس الافرنجية في نسق الكلمات ، يكون سهل المأخذ للخاص والعام ، حيث لا تخفى جنابكم صعوبة مأخذ القواميس العربية الدارجة من جملة أوجه ، والآن بادرت برقه لأخذ رأي جنابكم في مناسبة هذا العمل ، واذا كان يوجد مانع لطبعه إذا صار اتفاق بيني وبين مدير المطبعة على كلفته وإذا أردتم أن يكون طبع ذلك بمشاركة المطبعة على أن يكون مصروفه وفائده مناصفة بيننا فلا مانع عندي . وأظن أننا نقدر أن نتفق على عمل طريقة عادلة لا يكون فيها مغدورية على أحد الفريقين ، أرجو تكرموا بالجواب لأكون على بصيرة لانه إذا تم الرأي على ذلك أسعى حالا في جمع الكتب اللازمة لهـــذا العمل وأباشره في هذه الصيفية . ثم أخبركم أن العايلة بخير غير أن حلقي لم يزل كما كان لما كنتم جنابكم مشرفين،

فتحه لها على الألفاظ المولّدة والدخيلة والدارجة والعامية والمسيحية .

وقد كواه الحكيم بحجر جهنم مرة ، وربما أكون حصلت على فايدة قليلة من ذلك غير أن أملي ضعيف في رجوعه الى حاله القديم ولا سيا اني أرى أن استعمال الكلام يؤذيني إذا لم يكن بصوت منخفض ، إرادة الرب تكون ، والأمل أنكم جميعاً في حالة الصحة ، وأن الاولاد الذين كانوا منحرفي المزاج قد تعافوا ، وقد أرسلت لجنابكم كالة ترجمة مضامين أسفار العهد الجديد عن طريق بيروت ، الامل انها تكون وصلت لديكم وجنابكم بخير ، هذا مع سؤال خاطر مس سميث ، وأم سليم والاولاد يقبلون يديكم ويسألون خاطرها مع كل خدامة تلزم رهين أمركم ودمتم لمستمد دعاكم .

سوق الغرب في ١٨ تموز سنة ١٨٥٥ ولدكم

بطرس البستاني

جناب سيدي الجليل المحترم

غب لثم يديكم وسؤال خاطركم نعرض انه سابقاً تكلمت مع جنابكم عن طبع قاموس عربي مختصر لفائدة المدارس والعموم مجرد على ترتيب القواميس الافرنجية في نسق الكلمات يكون سهل المأخذ للخاص والعام حيث لا يخفى جنابكم صعوبة مأخذ القواميس العربية الدارجة من جملة اوجه والآن بادرت برقيمي لاجل اخذ راي جنابكم في مناسبة هذا العمل واذا كان يوجد مانع لطبعه اذا صار اتفاق بيني وبين مدير المطبعة على كلفتي واذا امكن ان يكون طبع ذلك بمباركة المطبعة على ان يكون معروف ان ما يحصل من منفعة بيننا فلا مانع عندي فالحق انما نقدر ان نتفق على عمل طريقة معادلة لا يكون فيها مضرة على احد الفريقين ارجو تكرموا بالجواب لكون على بصيرة لانه اذا تم الراي على ذلك اسعى حالاً في جمع الكتب اللازمة لهذا العمل وباشره في هذه الصيفية ثم نخبركم ان العائلة بخير غير ان حلقي لم يزل كما كان لما كنتم جنابكم مشرفيني وقد كواه الحكيم بحجر جهنم مرة وربما اكون حصلت على فايدة قليلة من ذلك غير ان املي ضعيف في رجوعه الى حاله القديم ولا سيما اني ارى ان استعمال الكلام يؤذيني اذا لم يكن بصوت منخفض ارادة الرب تكون والامل انكم جميعاً في حالة الصحة وان الاولاد الذين كانوا منحرفي المزاج قد تعافوا وقد ارسلت لجنابكم كالة ترجمة مضامين اسفار العهد الجديد عن طريق بيروت الامل انها تكون وصلت لديكم وجنابكم بخير هذا مع سؤال خاطر مس سميث وام سليم والاولاد يقبلون يديكم ويسالون خاطرها مع كل خدامة تلزم رهين امركم ودمتم

لمستمد دعاكم ولدكم بطرس البستاني

سوق الغرب في ١٨ تموز ١٨٥٥

صورة رسالة البستاني (من مقال الاستاذ عبد اللطيف الطيباوي في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد ٤٥ الجزء ٣ ص ٦٠٢) .

وكان هذا المنهج الذي أخذت به سبباً في النقد المستمر ؛ قال الدكتور حسين نصّار بعدأن تحدث عما في هذه المعجمات من انتظام واختصار وتوضيح :

« وامتازت هذه المعاجم بظاهرة أخرى ترجع إلى تأليفها للطلبة ، تلك هي عنايتها بالمصطلحات العلمية ، والعاميّ والمولّد ، لتقريبها إليهم . وكان أكثر من فعل ذلك البستاني الذي عُني بالعامي والمولد كثيراً في محيطه ... وآخر الظواهر فيها عنايتها بالألفاظ والمعاني المسيحية ، أو التي لها دلالات خاصة عند المسيحيين [1] .. »

وكذلك أخذ الدكتور عمر الدقاق على هذه المعجمات « أنهما انطوت على كثير من الألفاظ الدخيلة والعامية والكلمات التي تتصل بالعقيدة المسيحية [2] . »

---

(١) المعجم العربي ٢ : ٧٣٠ ويعلل الدكتور نصار وجود الالفاظ المسيحية في تلك المعجمات بقوله : « وكان ذلك أمراً طبيعياً ، لانهم جميعاً مسيحيون ، نشؤوا على تربية مسيحية دينية ، وألفوا معاجمهم لمدارس مسيحية دينية هي مدارس اليسوعيين » .

ونحن لا نرى ذلك أمراً طبيعياً لانهم إنما يضعون معجماً لغوياً ولا يؤلفون كتابا دينياً يشرحون فيه معاني الالفاظ من وجهة نظر خاصة ، وإلا فقدكان ينبغي أن تضع كل فرقة وكل طائفة معجماً للغتها ، ولو تم ذلك لرأيت في العربية معجمات بعدد ما عرف العرب من أديان ومذاهب وفرق ! ولكن شتان ما بين معجم يفسر الالفاظ تفسيراً لغوياً محضاً ، وكتاب يشرح دلالات الالفاظ ومعاني المصطلحات من وجهة نظر فقهية أو دينية اسلامية أو مسيحية .

(٢) مصادر التراث العربي : ٣٠٩ .

وظهر للمختصين أن هذه المعجمات لا تفي بالغرض ولا تحقق الغاية ، فكلف مجمع اللغة العربية بدمشق [1] الشيخ أحمد رضا - وهو أحد أعضائه - وضعَ معجم يلخص ما تناثر في المعجمات القديمة ويضيف ما استحدث من ألفاظ وظهر هذا المعجم باسم « متن اللغة » في سنة ١٩٥٨ م [2] . وفيه الكثير من مزايا المعجمات القديمة والحديثة ؛ فهو جيد الترتيب حسن الاخراج ، إلا أنه أفرد في هوامشه محلًا للعامية [3] ، ولم يُعن بالمصطلحات الحديثة والعلمية لخروجها عن متن اللغة .

وكان مجمع اللغة العربية بالقاهرة أكثر توفيقاً من مجمع دمشق إذ أدرك ان عمل المعجم اللغوي اليوم لم يعد عمل فرد واحد - مهما يؤت من سعة العلم - وأنه لابد فيه من تعاون أفراد ذوي جوانب متعددة في الاختصاص ، فألف اللجان وقام بالمحاولات حتى نجحت إحدى لجانه فوضعت « المعجم الوسيط » الذي ظهر سنة ١٩٦٠ في جزأين قاربا المئة بعد الالف من الصفحات، فكان أول معجم لغوي يتم وضعه على يد هيئة علميه مختصة ، ولعله أفضل المعجمات الحديثة جمعاً وترتيباً ، وإن كان لم يخل من نقص ، تعقَّبه من أجله بعض الباحثين بالنقد والتعليق [4] .

---

(١) وكان اسمه اذ ذاك (المجمع العلمي العربي) .

(٢) كلفه المجمع بوضع المعجم في سنة ١٩٣٠ وقد أتمه في سنة ١٩٣٩ وبقي يعمل في تنقيحه حتى سنة ١٩٤٧ ومات في سنة ١٩٥٣ قبل أن يطبع معجمه بخمس سنوات

(٣) مع انه يقول في مقدمته انه ترك كتب المتأخرين والمعاصرين حتى لا تسري اليه أغلاطهم ويستشهد بالشرتوني الذي استخرج له من معجمه (أقرب الموارد) ٤٠٠ غلطة في ٣٠٠ صفحة (انظر مقدمة متن اللغة ص ٧٦) .

(٤) كتب الدكتور عدنان الخطيب سلسلة من المقالات بعنوان « نظرات في المعجم الوسيط » في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق - من المجلد الثامن والثلاثين عام ١٩٦٣ الى الجزء الرابع من المجلد الثاني والاربعين عام ١٩٦٧ -

كلمة صريحة في المنجد :

وقد رأينا أن نخص (المنجد) من بين هذه المعجمات الحديثة بكلمة صريحة ، نظراً لتوالي طبعاته، واستمرار القائمين عليه في العناية به وباخراجه، وإقبال الطلاب وغير المختصين على اقتنائه والتعويل عليه .

ولست أدري من أين ابدأ في الحديث عن (المنجد) وقد أصبح له من العمر ستون عاماً .

أتحدث عنه يوم ولد في سنة ١٩٠٨م على يد الأب لويس معلوف أم اتحدث عنه يوم احتضر في سنة ١٩٦٩م على يد ورثة لم يحسنوا التصرف فيما ورثوه .

أتحدث عنه عارضاً تاريخه وتطوره من خلال طبعاته التي بلغت العشرين ام أنقل ما كتبه عنه من قبل أساتيذ أفاضل مبينين ماوقع فيه من خطأ ثم منبهين على ماجثم فيه من خطر ، فلقد سبق الى الكتابة عن المنجد :

١ ـ الاستاذ عبد الله كنون ، فكتب « نظرة في منجد الآداب والعلوم »[1]

٢ ـ والأستاذ منير العمادي ، فكتب « أغلاط المنجد »[2]

٣ ـ والأستاذ سعيد الأفغاني ، فكتب تقريراً عن « أضرار المنجد والمنجد الأبجدي»[3]

---

(١) مجلة اللسان العربي . العدد ١ ص ١١٣ .

(٢) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد الاربعون ص٦٣٣ و ٨٦٤ .

(٣) صدر هذا التقرير في شباط سنة ١٩٦٨ وطبع مستقلا عام ١٩٦٩ .

٤ – والأستاذ عبد الستار فراج، فكتب مقالاً بعنوان «المنجد معجم في اللغة : نقد لامفر منه»[١]، ثم عاد ثانية فكتب «المنجد في الاعلام : نقد له أيضاً»[٢] وأشار إلى بعض المآخذ عليه الأستاذان الدكتور حسين نصار[٣]، والدكتور عمر الدقاق[٤]

وهم على تفاوت بينهم يرون فيه خطأ، وأنه قد اعتمد مصادر غير موثوقة، وأنه ليس ثقة من الناحية اللغوية. وأنه أدخل المولد والعامي وأنه عني بالألفاظ المسيحية.

ولست اظن أنني سأفيد شيئاً إذا أنا عدت إلى المنجد لأنثر مافيه من خطأ جديد، لأن الذين سبقوني إلى الكتابة والنقد لم يفيدوا شيئاً، وأما المنجد نفسه فعلى استعداد لنحدثنا دوماً بخطأ جديد أو كما قال الأستاذ فراج «ولو زدناه قراءة لزادنا أخطاء[٥]».

ولنبدأ من أول القصة، على أننا نبادر منذ الآن إلى أنه قد آلينا على انفسنا في هذا الكتاب أن نقول الحق، وأن ننشر الوعي، لايعنينا بعد ذلك رضى من رضي، أو سخط من سخط، وأننا نتوخى الموضوعية والحقيقة، فلا نجامل على حسابها أحداً، ولا نرضى بها بدلا، واننا لن نخشى من

---

(١) مجلة العربي العدد ١٣٤ شوال ١٣٨٩ وكانون الثاني ١٩٧٠ .
(٢) مجلة العربي العدد ١٣٨ صفر ١٣٩٠ أيار ١٩٧٠ .
(٣) المعجم العربي ١ : ٧٢٨ – ٧٣١ .
(٤) مصادر التراث العربي ٣٠٨ – ٣٠٩ .
(٥) العربي . العدد ١٣٤ ص ١٥٨ .

التعرض بصراحة لما يمس الألفاظ الدينية والطائفية ، لأن الصراحة هي أقل ما يطلب في الانتصار للحق ، ولأننا لا نخشى أن نتهم بالدفاع عن الدين أو القومية أو اللغة ، فكل ذلك مما نعتز به ونفخر .

ولا نخشى أن نتهم بالتعصب لتاريخ أمتنا ، لأن التعصب ضد تاريخنا لا يرد إلا بالتعصب لذلك التاريخ .

على أن ذلك كله لن يخرج بنا عن الحياد الموضوعي والحكم المنصف ، فنحن لا نريد أن نبخس الناس أشياءهم ، ولا أن نزري بجهودهم ، ولا أن نسيء الظن بغاياتهم .

ولكننا نريد أن ننبه على أن معجم المنجد ـ حتى الآن ـ لا يعول عليه وأن نسمع أصحابه ما يقوله فيه المختصون ، ولعلهم لا يتبرمون بما يسمعون عملا بقول المنفلوطي رحمه الله ، فقد كان في جملة ما حفظنا من أدبه قوله : « لا يتبرم بالنقد ، ولا يضيق به ، إلا الغبي الأبله الذي لا يبالي أن يفهم الناس سيئاته بينهم وبين أنفسهم ، ويزعجه كل الإزعاج أن يتحدثوا بها في مجامعهم ، ولا فرق بين فهمهم إياها وحديثهم عنها » .

وسنترك كل ما قيل عن المنجد ، ونتجه إليه ، ونأخذ من أقوال أصحابه في مقدماتهم لطبعاته المختلفة .

واختيار اسم (المنجد) للمعجم اختيار موفق على كل حال ، لأنه يدل على ما نريد من إنجاد المعجم للباحث ، ويقال في اللغة : استنجدني فلان فأنجدته ، أي استعان بي فأعنته ، والمعجم في الحقيقة عون للباحث على ما يريد من إيجاد لفظ أو تفسير كلمة .

(المنجد) أطول المعجمات الحديثة عمراً حتى الآن ، فلقد ظهرت الطبعة الأولى منه سنة ١٩٠٨ ، باسم (المنجد ، معجم عربي مدرسي) ، وفي صدره مقدمة كتبها واضعه الأب لويس معلوف اليسوعي (١٩٤٦ م) . ثم تتالت طبعات المنجد دون تغيير فيه ، حتى ظهرت الطبعة الخامسة في سنة ١٩٢٧ م وفيها مقدمة أخرى جديدة لواضعه أيضاً الأب معلوف .

وتتابعت بعد ذلك الطبعات ، دون تغيير في المقدمات ، فظهرت الطبعة السابعة في سنة ١٩٣١م باسم (المنجد معجم مدرسي للغّة العربية) وفيها مقدمتا الطبعتين الأولى والخامسة ، وظل الأمر كذلك ، وظهرت الطبعة

(١) معجم الادباء ٥ : ١١٢ .

الحادية عشرة في سنة ١٩٤٩ م - والرابعة عشرة في سنة ١٩٥٤ م باسم (المنجد معجم للغة العربية) ثم أدخلت تعديلات وأضيف إلى المنجد قسم في الأدب والعلوم ، فكانت الطبعة الخامسة عشرة التي ظهرت في سنة ١٩٥٦ باسم المنجد في اللغة والأدب والعلوم ، وقد أصبح المنجد فيها قسمين متميزين : الاول هو المنجد في اللغة ، والثاني هو المنجد في الادب والعلوم، وهو معجم لأعلام الشرق والغرب ، وضعه الأب فردينان توتل . واستمر المنجد كذلك في طبعته السابعة عشرة التي ظهرت سنة ١٩٦٠ إلا أنه وضع في هـــذه الطبعة مقدمة جديدة بالاضافة الى مقدمتي الطبعتين الأولى والخامسة. وحمل المنجد بعد ذلك في طبعته التاسعـــة عشرة التي ظهرت في سنة ١٩٦٧ اسم (المنجد الأبجدي) ، ولم يكن في الحقيقة أبجدياً ، وإنما كان على الترتيب الألفبائي المعروف ، ولكنه كان مغايراً للطبعـــات السابقة فلم ترتب الكلمات فيه بحسب أصولها المجردة على نحو ترتيب المعجمات العربية ، وإنما جاءت فيه مرتبة بحسب نطقهـــا على نحو ماهو معروف في المعجمات الأجنبية .

ثم ظهرت آخر طبعات المنجد ، وهي الطبعة العشرون ،في سنة ١٩٦٩ م محتفظة بتقسيم الطبعة السابعة عشرة وبمقدمتها أيضاً .

ولا بدّ ونحن بصدد الحديث عن طبعات المنجد أن نذكر أن واضعيه شعروا بالبعد عن غايتهم الأولى التي هي وضع معجم مدرسي ، ورأوا معجمهم قـــد اتسع من جديد ، فأخذوا يخرجون طبعات خاصة بالطلاب ، وكانت أولى هذه الطبعات في سنة ١٩٤١ ، وكانت الطبعة الثانية في سنة ١٩٥٢ ، ثم صوّرت في طبعـة ثالثة سنة ١٩٥٦ ، وتتالت الطبعات

حتى كانت الثامنة في سنة ١٩٦٦ باشراف الأستاذ فؤاد أفرام البستاني رئيس الجامعة اللبنانية .وكان المنجد في أ كثر طبعاته جيداً من حيث الشكل والاخراج.

ونعود الى مقدمات المنجد فنجد الأب معلوف يطالعنا في مقدمته للطبعة الأولى مبيناً غرضه من وضع المعجم بكلام العالم بما هو مقدم عليه من أمر عسير فيقول : « إن أدباء العربية وأئمتهـــا العاملين في إعلاء شأنها وإدناء قطوفها ، ولا سيما أرباب المدارس منهم ، كثيراً ما قد لهجوا في هذه الأزمنة بمسيس الحاجة الى معجم مدرسي ، ليس بالمخل المعوز ولا بالطويل الممل المعجز ، يكون قريب المأخذ ، ممتازاً بما عرفت به المعجمات المدرسية في اللغـات الأجنبية من إحكام الوضع ووضوح الدلالة » ثم يقول : « وكنا ممن انتبه إلى هـذا الامر ، ورغب أشد الرغبة في تحقيق تلك الأمنية ، على أننا لم نكن لنحدّث النفس بتجشم عناء مثل هـذا التأليف لما نعهده من عجزنا ونعلمه من صعوبة الخطة ووعورة المسلك لو لم ينتدبنا لذلك من قد جعلنا في يدهم زمام أمرنا » والأب معلوف عالم بما قد يقع في المعجم من تصحيف وهفوات ، ولذلك فهو يبين عذره ويطلب التنبيه على ما فرط منه ، ورغبة في تحسين المعجم في طبعة قادمة، فيقول : « ولما كان كل انسان عرضة للغفلة والنسيان، وكانت لغتنا يسهل ويكثر فيها التصحيف لما بين حروفها وحركاتها من المقاربة والمشابهة ، نلتمس لنا عند أرباب اللغة وأنصار العلم عذراً عمـا يجدون في هـذا المؤلف من الهفوات ، راجين من فضلهم ألا يضنوا علينا بالتنبيه إلى ما فرط ، وإبـداء الرأي فيما[1] يساعدنا على تحسين العمل في

---

(١) في (المنجد) : في ما . والوجه في مثل ذلك الوصل .

الطبعة التالية [١] . »

وكلام الاب معلوف كلام جيد واضح ؛ فالغرض وضع معجم مدرسي ، والطريق صعبة وعرة ، والخطأ متوقـع ، والعزم على التعديل والتحسين والاخذ بالصواب أمر لابدّ منه . إلا أن الامر الذي يقفنا في هذه المقدمة أن صاحبها ـ وهو قادم على أمر خطير عسير ـ لم يذكر لنا المصادر التي اعتمد عليها أو نقل عنها بل اكتفى بأن قال : « وخصصنا الوقت الطويل لمطالعة الأمهات واستطلاع، آراء من لهم القول الصائب واختيار المواد .. »

فأي أمهات تلك التي عاد إليها ؟ ومن هم أصحاب القول الصائب في اللغـة من معاصريه ؟ وعلى أي أساس بني اختياره ؟؟ لقد رأينا منذ قليل كيف كان أرباب اللغة بحق يقدّمون في خطب معجماتهم ثبتاً بالمصادر التي عوّلوا عليها ، وما كلام ابن منظور في مقدمة اللسان ولا كلام الزّبيدي في مقدمة التاج ببعيدين عنا فَينسيَنا [٢] .

ويمضي الأب معلوف بعد ذلك فيذكر أنه نفّذ ماوعد به من تعديل وتصحيح قائلاً في مقدمة الطبعة الخامسة إنه أعاد النظر ودقق،وعارض بما ورد في المآخذ الموثوق بها ، والامهات المعوّل عليها حتى جاءت الطبعة الخامسة « مهذبة مصححة مكملة [٣] . » ورأى إتماماً للفائدة أن يلحق بالمعجم ذيلا يتضمن من أقوال العرب ما جرى مجرى الأمثال . وهكذا يعيد

---

(١) المنجد ، مقدمة الطبعة الاولى .

(٢) انظر ما سبق في ص ١٥٤ ـ ١٥٦ـ١٥٨

(٣) المنجد ، مقدمة الطبعة الخامسة .

ذكر المصادر الموثوق بها والأمهات المعوَّل عليها دون أن يسميها !

وأما مقدمة الطبعة السابعة عشرة التي صدرت بها « المطبعة الكاثوليكية » تلك الطبعة من المنجد فتذكر « أن المواد اللغوية ما زالت مواد منجد المعلوف ، وأنه زيد عليها مئات المفردات والمعاني المستحدثة من لغة المعاصرين ، فضلًا عن ألف كلمة ونيف من اصطلاحات ذوي العلم والاختصاص بمختلف ميادين المعرفة [1] » ولو سألنا عن هذه المئات من المفردات والمعاني المستحدثة ، من اختارها ؟ ومن أي المصادر استقاها ؟ ومن فسّر معانيها ؟ لكان الجواب في خاتمة المقدمة « أن القسط الأوفر في تجديد المتن اللغوي من المنجد قد أداه الاستاذ كرم البستاني ، ثم الأب اليسوعي بولس موترد الاختصاصي في علم النبات ، والأستاذ عادل أنبوبا الذي ما برح منذ أعوام يدأب في إحياء المعجم العربي في جميع فروع الرياضيات والعلوم الطبيعية . ولا يخفى أنهم جميعاً قد أفادوا مما صنفه العلماء واللغويون في البلدان العربية من معاجم اختصاص وأبحاث وترجمات [1] . » ومقدمة هذه الطبعة هي التي صدرت بها طبعات المنجد اللاحقة حتى الطبعة الأخيرة التي صدرت في سنة ١٩٦٩ .

وهكذا تمضي طبعات المنجد وليس في واحدة منها منذ صدر سنة ١٩٠٨ إلى آخر طبعاته في سنة ١٩٦٩ ذكر لمصدر لغوي واحد يعول عليه !! ولست أدري ماقيمة معجم لغوي لا أصل له ولا سند لروايته ؟؟

---

(١) المنجد ، مقدمة الطبعة السابعة عشرة .

وأما مقدمة الأب توتل لمنجد الاعلام ففيها أن صاحبها أقبل على العمل منذ سنة ١٩٣٠ وأنه اعتمد خاصة على دائرة المعارف الإسلامية لكبار المستشرقين، ومعجم المطبوعـــات لسركيس، ومجاني الادب للاب شيخو وتاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان وتاريخ الآداب الغربية لبروكلمان وتاريخ الآداب العربية المسيحية لعراف والانسيكلوبيديات الغربية الكبرى. وهو يصرح بأنه لايؤاخذ إذا أهمل مدينـــة بعيدة لارابطة متينة لها بأوطاننا بينما ذكر عدداً من مدننا وقرانا نحتاج إلى معرفة أسمـــائها ومواقعها (١)

وعجيب أن يكشف صاحب هذه المقدمة عن إهماله للمصادر العربية الأصيلة ويذكر مثل هذه المصادرالتي ذكرها مع أنه يريد ان يكتب عما يتصل بأوطاننا العربية برابطة متينة ! ! ولذلك فقد كان حقاً ما قاله الأستاذ عبد الله كنون من أنه « ليس بين هذه المصادر مرجع أصلي من الكتب العربية القديمة المعتمدة في كثير من المواد التي يشتمل عليها المعجم » (٢)

ولو تصفحت المنجد بعد ذلك لرأيت فيه عجباً من العجب ، ولعرفت أن واضعيه لا يستطيعون أن ينسبوه الى مصدر ثقة، ولا أن يعودوا به إلى نسب معروف .

ولو وازنت بين طبعاته وعارضت واحدة منهـا بأخرى لعرفت أن

---

(١) مقدمة المنجد في الادب والعلوم . (٢) اللسان العربي : العدد ١ ص ١١٤ .

ما قيل في المقدمة من طلب التنبيه على الخطأ ليس إلا تغطية للاصرار على الخطأ ؛ ذلك أن عدداً كبيراً من الأغلاط التي نبه البـــاحثون عليها وذكروا صوابهـــا ، ما زالت في الطبعة الأخيرة خطأ ، وأن بعض ما لم يعجب أصحاب المنجد تصحيحه حذفوه حتى لا يصححوه !

لقد ذكر الأستاذ عبد الله كنون أربعة وأربعين موضعاً مما غلطوا فيه ، وذكر الأستاذ العمادي عدداً آخر ، ثم عدد لهم الاستاذ عبد الستار فراج مائتي موضع مما غلطوا فيه أيضـــاً ، فكم صححوا في الطبعة الجديدة من هذه الأغلاط ؟؟

وها نحن أولاء نذكر نماذج قليلة مما ورد في آخر طبعات المنجد من الاغلاط :

غيض من فيض :

١ ـ القرآن الحديث !

هل سمع أحد من قبل ، أو سيسمع أحد من بعد بقرآن حديث ؟؟ وهل لهـــذا القرآن ذكر في غير (المنجد) الذي يقول في تفسيره لـ (أهل البيت) [١] : « يختلف المسلمون في تأويل هذه العبارة . ورد ذكرها في القرآن الحديث للدلالة على آل النبي وأزواجه . أما الشيعة فيحصرون أهل البيت بعلي زوج فاطمة ابنة النبي وسلالتها . »

---

(١) المنجد : ٩٧٩ .

لا نشك أنهم سيقولون إن عامل المطبعة سها فسأسقط الواو بين القرآن والحديث ، وأنهم سهوا عن تصحيحها ، فلننتقل إلى ما لا سهو فيه .

٢ - السلفية بدعة !

ذكر (المنجد) السلفية ووضع كسرة تحت السين ، وهو خطأ لأنها بفتح السين ، ثم قال : « بدعة يعرف أتباعها بأصحاب السلف الصالح . يتمسكون بالسنة ، وينبذون كل تجديد . أشهرهم ابن تيمية . ومنهم الوهابيون في الجزيرة و « أهل القرآن » و « أهل الحديث » و « الفرائضيون » في الهند[١] . »

ولست أدري هل يقول عاقل مثل هذا الكلام ؟ كيف يكونون أصحاب بدعة وهم يتمسكون بالسنة وينبذون كل تجديد ؟؟ وهل ابن تيمية والوهابيون وأهل القرآن وأهل الحديث أشهر أصحاب البدعة ؟؟

٣ - الحنيفية بدعة دينية من الموحدين !

قال المنجد[٢] في حديثه عن « الجاهلية » : « وهناك بدعة دينية من الموحدين تعرف بالحنفيّة » وكان الاستاذ منير العمادي قد ذكر لهم[٣] قبل صدور طبعة المنجد هذه بأربع سنوات أن ما ذكروه خطأ ، وأن الصواب هو الحنيفية ، وأنها ليست بدعة ، بل هي دين ابراهيم الخليل عليه السلام. . وأنه لما جاء الإسلام كان الحنيف المسلم ، وقيل له حنيف لعدوله عن الشرك

(١) المنجد : ٩٨٢ .   (٢) المنجد في الاعلام : ١٦٥ .

(٣) مجلة مجمع اللغة العربية المجلد ٤٠ ص ٦٣٤ (تموز سنة ١٩٦٥).

واعتزاله الأصنام « ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين [١] . »

٤ ـ مخلفات محمد (ﷺ[٢]) :

لقد اكتشف أصحاب المنجد أنه ﷺ خلـّف شَعراً وأسناناً وقطعاً من الملابس وبعض الأدوات ، وأن هذه المخلفات محفوظة في بعض الأماكن يكرمها المسلمون . وكانوا قد أضافوا في الطبعة السابقةإلى ما ذكرنا من المخلفات(نماذج من خطه) ! فكتب الاستاذ عبد الله كنون[٣] ينبه على ما في ذلك من خطأ ووهم ، فالنبي ﷺ كان أمياً لا خط له . ويسأل عن الأماكن التي يعرفونها لتلك المخلـّفات، ويبين لهم أنه ليست في المعاجم المعروفة مادة لغوية اسمها الأثر الشريف وان الأولى عدم إقحامها في المنجد . وبعد كل ذلك يعود المنجد في طبعته الأخيرة بعد خمس سنوات من مقال الاستاذ كنون ليذكر[٤] مادة لغوية هي (الأثر الشريف) ويفسّر هذا الأثر بقوله : « هو بعض مخلفات يقال إنها لمحمد . مثل شَعره وأسنانه وقطع من ملابسه وبعض أدواته وطابع أقدامه بنوع خاص. وهذه الآثار محفوظة في بعض الأماكن كالآستانة . »

---

(١) سورة آل عمران ٣ : ٦٧ .

(٢) هذه الزيادة من عندنا لان ذكرها على ما يبدو محظور على معجم يوضع للطلاب في البلاد العربية .

(٣) اللسان العربي ١ : ١١٥ (تموز ١٩٦٤) .

(٤) المنجد ص : ٩٧٧ .

٥ ـ تفسيرات لغوية ! !

لما كان المنجد معجماً للغة العربية ـ كما زعم واضعوه ـ فإن التعريف اللغوي هو أهم ما كان يجب أن يعني هذا المعجم به ، ولكن العجيب أنه حشدت فيه طائفة من الألفاظ لا يصحّ ورودها على الشكل الذي وردت عليه ثم جاء التعريف بها ليفضح الغاية التي أوردت تلك الألفاظ من أجلها . ونحن نذكر فيما يلي أمثلة قليلة منها تاركين للقارىء أن يحكم من خلالها على فهم المنجديين للغة العربية وللعمل المعجمي وأن يدرك بعد ذلك الغاية التي رموا إليها وراء معجمهم .

أ ـ **الاماكن المقدسة** : « عند المسيحيين هي الأراضي الفلسطينية التي عاش فيها يسوع المسيح ، وإليها يحجون من سائر أقطار العالم . أهم مراكزها أورشليم أو القدس الشريف ، المدينة التي يقدسها المسيحيون والمسلمون واليهود ، وبيت لحم والناصرة [١] . »

وفي هذا أولاً أنه ليس تفسيراً لغوياً مع أنهم ذكروه في جملة مفردات قالوا إنها فصلت لاسباب علمية ووضعت في ملحق خاص ريثما يتيسر وضعها بأماكنها في (المنجد في اللغة) [٢] ! !

وفيه ثانياً أنه ليس في بلاد العرب ، كل العرب ، أماكن مقدسة غير التي ذكروها مع أن بين العرب الذين وضع المعجم لأبنائهم وطلابهم من يقدس أماكن أخرى غير التي ذكروها تقديساً يفوق تقديسهم للأماكن التي ذكروها .

وفيه ثالثاً شيء من عدم اللباقة ، إذ كان يجدر بواضعي المنجد من باب المجاملة ـ إن لم يكن من باب الواقع ـ أن يذكروا بقية الأماكن التي يقدسها المسلمون كما ذكروا غيرها .

---

(١) المنجد ص٩٧٨ . (٢) انظر المنجد ص ٩٧٧ .

٢ً ـ **الرسل** : « مفردها رسول ؛ هم عند المسيحيين ، الاثنا عشر الذين اختارهم السيد المسيح بين سائر تلاميذه ليكونوا قادة كنيسته ، وهم ...[١] » ويعدّدون أسماءهم ، وينتهي تفسير الرسل لغوياً ! ! وينطبق على هذا كل ما قلناه حول التفسير السابق للأماكن المقدسة .

٣ً ـ **المعترف** : « من اعترف بين يدي المضطهد بأنه نصراني . وإذا كابد العذاب في سبيل إيمانه فهو شهيد[٢] . » وليس في معجم لغوي موضع هذا التفسير غير اللغوي .

٤ً ـ **الصلاة** : ج صلوات... ارتفاع العقل الى الله لكي نسجد له[٣] .. ».

٥ً ـ **الطقس** : ج طقوس : الطريقة ، وغلب على الطريقة الدينية فهو بمعنى النظام والترتيب وإقامة الشواعر[٤] (كذا) .

ولسنا ندري من أي معجم استقوا هذا التفسير ، لأن الذي يستعمل لهذا المعنى في المعجمات هو المناسك أو الشعائر . أما الشواعر فجمع شاعرة ولست أدري كيف يريدون إقامتها ! ؟

٦ ـ **تعريفات ومعلومات منجدية !**

١ً) **النبي** (في المنجد فقط) كان يفرض الإتاوة و (والإتاوة) في المنجد أيضاً الخراج والرشوة ...!

جاء في المنجد : « خيبر : واحة على الطريق بين المدينة ودمشق (!) غزاها النبي وفرض الاتاوة على سكانها اليهود ...[٥] » وجاء فيه « الاتاوة :

---

(١) المنجد : ص ٩٨١ .
(٢) المنجد : ص ٥٠٠ .
(٣) المنجد : ص ٤٣٤ .
(٤) المنجد : ص ٤٦٨ .
(٥) المنجد : ص ٢١٠ .

الخراج . والإتاوة : الرشوة » [1] ولسنا ندري أي المعنيين يريدون ؟ إلا اننا نعرف ان الاستاذ العمادي قد صحح لهم ما ذهبوا إليه في مقاله عن أغلاطهم منذ أربع سنوات وأشار إلى مـــا في كلامهم من تحريف وتشويه [2]

٢ - اشعب (في المنجد) مولى عثمان بن عفان

جاء في المنجد « أشعب : مولى لعثمان بن عفان . نشأ في المدينة كان حسن الصوت ، شديـــد الطمع ، كثير الطلب ، ضرب فيه المثل فقيل : أطمع من أشعب » [3]

والذي في كتب التراجم أن اشعب بن جبير ، ظريف ، أديب ، راوية للحديث ، ويقال إنه كان مولى عبد الله بن الزبير ، ويقال مولى فاطمة بنت الحسين ، ويقال مولى سعيد بن العـــاص ، ويقال مولى عثمان بن عفان . وفي تاريخ بغداد أنه عمر طويلا وأدرك زمن عثمان [4]

فمن أين للمنجد هذا الجزم ؟ ولمَ أغفل سائر الروايات وآثر كونه مولى لعثمان ؟

---

(١) المنجد : ص ٢ .

(٢) مجلة مجمع اللغة العربية المجلد ٤٠ ص ٦٣٩ تموز سنة ١٩٦٥ .

(٣) المنجد في الاعلام : ص ٣٤ .

(٤) انظر تاريخ بغداد (٧ : ٣٧) وتهذيب ابن عساكر (٣ : ٧٥) .

٣ ـ الحملات الصليبية

يبدو أن واضعي المنجد لايفرقون في المعنى بين (الاحتـــلال) وبين (الاسترجاع والاسترداد) ، او أنهم يعتقدون أن الامـــاكن المقدسة في فلسطين حق للاوربيين ؛ وذلك لأنهم لايذكرون الحروب الصليبية مرة إلا ويقولون إن القائمين بها جاؤوا لاسترجاع الأماكـــن المقدسة واستردادها ! ! فقـد قالوا في تعريف (الحملات الصليبية) إن المحاربين النصارى « جاؤوا من أوربا الغربية (ليستردوا) قبر المسيح والأراضي المقدسة »[1] وقالوا مرة ثانية في حديثهم عن الحملات الصليبية ان الحمـــلة الصليبية السادسة كان من نتائجها (استرجاع) القدس وبيت لحم[2]

ثم إنهم لخصوا نتائج تلك الحملات فقالوا « كان من نتائجها التعارف والتفاهم بين الشعوب ، وتبادل العلاقات الثقافية والصلات التجارية بين الشرق والغرب ، وازدهار فن البناء ورقي الصناعات »[3] فهلاّ ذكروا أين ظهرت هذه النتائج ؟ ؟ وهلاّ قالوا ان هذه الحملات الاستعمارية حملت الى الشرق الخراب والدمار ، وحملت في عودتهـــا الى الغرب كثيراً من المخطوطات والصناعات ، ليكونوا أقرب الى الحق والواقع ؟ وهل بمثل هذه الروح يريد أصحاب المنجد أن يخدموا اللغة العربية الشريفة وطلاب

---

(١) و (٢) و (٣) المنجد فى الاعلام : ص ٢١٠ .

المدارس العربية ؟ !

٤) ألفية ابن مالك في اللغة

يبدوا أن أصحاب المنجد لايفرقون بين اللغة والنحو ، فقد ذكروا [١] في التعريف بألفية ابن مالك أنها في اللغة ، ومعروف انها في النحو . والعجيب أنهم كان قد أصابوا في تعريفها في طبعتهم عـــام ١٩٦٠ فذكروا انها في النحو [٢]

٧ - **ابن رشيق رجلان** ، ولد أحدهما في المحمدية والثـــاني في المهدية ولـكل منها « العمدة في صناعة الشعر ونقده » ! ولا تظن أن الترجمتين لرجل واحد ، لأن المنجد جعلها رجلين [٣] كما صنع ذلك في ابي العتاهية [٤] وكثيرين غيره [٥] .

وبعد ففي المنجد أغلاط كثيرة لم تصحح مع أن البـاحثين كتبوا منبهين منذ سنوات على مافيها من خطأ في الشكل أو الشرح مثل :

تجيروا [٦] - والخضر [٦] - والطوارق [٧] - الى غير ذلك من الغلط

---

(١) المنجد : ص ٩٧٨ .

(٢) المنجد ط ١٩٦٠ ص ٣٢ .

(٣) انظر المنجد في الاعلام : ٢٣٧ و ٢٣٨ .

(٤) ذكر في المنجد سابقاً خطأ ونبه على ذلك الاستاذ العبادي في مجلة المجمـــع (المجلد ٤٠ ص ٦٣٦) واعيدت كتابته خطأ في طبعة المنجد الاخيرة ص : ٨١

(٥) انظر أمثلة من ذلك في مقال الاستاذ فراج (العربي عدد ١٣٨ ص ٤٠)

(٦) ذكر وجه الصواب فيها الاستاذ الافغاني في تقريره المطبوع عن المنجد ، وأعيد ضبطها خطأ في الطبعة الجديدة

(٧) أشار الى صوابها أيضاً الاستاذ الافغاني في تقريره وعادوا ثانية فكتبوهــا بالجيم (الطوارج) .

الكثير الذي نبهوا عليه فعادوا إليه . بل أعجب من ذلك أن بعض مالم يريدوا تصحيحه غيّروا وجه كلامهم فيه . وكأن وجه الصواب فيه يؤذيهم ، من ذلك مثلاً أنهم ذكروا في طبعة سابقة أن (كليبر) الذي تولى الحكم في مصر بعد نابليون قتله أمين الحلبي ، فنبهوا [1] الى ان اسم الشاب العربي الذي قتله هو سليمان لا أمين ، فاذا هم في الطبعة الجديدة يقولون عن كليبر إنه « اغتيل في القاهرة » .

وكذلك ذكروا في طبعة سابقة أن (الف ليلة وليلة) حكايات تحكيها شهرزاد لأختها في حضرة أمير المؤمنين ، فقيل لهم إن هذا خطأ وافتراء وإقحام لاسم أمير المؤمنين ، فاقتنعوا على مايبدوا وأرادوا وجه الصواب ففكروا وقدروا ، وأخطؤوا حيث قدروا ، فقالوا في الطبعة الجديدة ان شهرزاد كانت تحكيها لأختها في حضرة الخليفة ! !

أما عثمان بن فرعون الذي ذكر لهم الأستاذ العمادي [2] وجه الصواب فيه ونبهم الى انه ابن مظعون ، وكذلك الضحاك بن قيس ، فلم أعرف لهما موضعاً في الطبعة الجديدة ! !

بل لقد وقع الخطأ حتى في الحديث عن المتأخرين والمعاصرين كالشيخ عبد القادر المغربي الذي قالوا إنه رئيس المجمع العلمي بدمشق ولم يكن الاستاذ المغربي في يوم من الأيام رئيساً للمجمع .

---

(١) تقرير الأستاذ الأفغاني ، ص : ٧

(٢) مجلة مجمع اللغة العربية المجلد ٤٠ ص ٨٦٦ و ٨٦٧ .

وبعد كل ذلك نجد في المنجد نقصاً لا ينجدنا معه المنجد وخاصة في اسماء الاعلام . ولو كان الاختصار عاماً لسكتنا ، ولكن الواقع الذي لامراء فيه أنهم يقحمون ما لا علاقة له باللغة ، ويسهبون في تعداد اشخاص وتواريخ لا شأن للعرب بها ، ويغفلون اعلاماً لهم في تاريخ العرب أو أدبهم حظ وشهرة ، على عكس ما قال الأب توتل في مقدمته . ان تاريخ مدينة روما مثلا استغرق صفحة كاملة [1] على حين أغفل كثير مما له ذكر في التاريخ العربي كأبي عبيدة بن الجراح . يقول الاستاذ عبد الستار فراج « أما الإهمال للشخصيات العربية البارزة مع ذكر كثير من التوافه من قرى ونكرات فحدث عن ذلك ولا حرج » ثم يسأل لماذا أهمل القائمون على المنجد مثل العقاد والمازني والزيات والشبيبي والبشير الابراهيمي وغيرهم [2] !!

وكذلك أهملوا غير قليل من أسماء الصحف الإسلامية ، ورؤساء الوزارات وشيوخ الازهر ، وأهملت مؤلفات كثير ممن ذكرت تراجمهم كالامير عبد القادر والشيخ طاهر الجزائري ... مع الحرص على ذكر معلومات لا تغني ثقافة العربي أو لا يتسع لأمثالها معجم ، كذكرهم لبائعة أرجوان في مكدونيا اعتنقت الايمان المسيحي [3] وذكرهم لكلكامش [4] وأنكيدو [5] .. أفهؤلاء أكثر ارتباطاً بأوطاننا — على حد قول الاب توتل — من أبي عبيدة عامر بن الجرّاح ؟ !

---

(١) هي الصفحة ٢٤٥ من منجد الأعلام .

(٢) العربي . العدد ١٣٨ ص ٤٠ .

(٣) المنجد ص ٤٦١ في ترجمة (ليديا) .

(٤) و (٥) هما بطلان اسطوريان لهما مغامرات ضد الوحوش كما في المنجد .

وفي المنجد بعد ذلك كله ، خطأ في ضبط الكلمات من مثل قوله لقطة العجلان ، بضم العين ، والصواب بفتحها . وابن حجة الحموي بضم الحاء ، والصواب بكسرها « بل ان فيه لحناً عجيباً من مثل قولهم في حديثهم عن الجرمي : « من أخباره أنه وأبو عثمان المازني كان السبب في اظهار الكتاب [1]» والصواب « انه وابا عثمان المازني كانا السبب ... » بل ان مثل ذلك قد وقع في التمهيد الذي جاء في آخر طبعاتهم لمنجد الطلاب إذ قالوا : « ولا بد للطالب من الاطلاع على هذا المختصر » بضمّ العين ولو تركوا الشكل لكان خيراً لهم ، فقد يقرأ الطالب ما جروه إلى الخطأ فيه صواباً بفطرته .

ومثل ذلك خطؤهم في التعبير كقولهم « عاش على أيام فلان » أي في أيامه . وقولهم « فقطنوا اللجاه ومرتفعات حوران (الذي) دعيت بجبل الدروز[2] » ومثله خطأ المطبعة الذي لم يصححوه كقولهم عن مدينة الرياض « يربطها بالرقام خط حديدي » وأظن انهم يريدون « الدمّام » وقولهم « تباع ، وتباعها » وهم يريدون « أتباعه وأتباعها [3] .

وفي المنجد خطأ املائي أشار الأستاذ الأفغاني إلى بعضه من مثل رسمهم فيا ، وألا ّ (أي ان الناصبة المدغمة بلا النافية) على النحو الآتي :

---

(١) المنجد في الاعلام : ١٦٩

(٢) في حديثهم عن الدروز في ص ٩٨٠

(٣) في حديثهم عن ماركس ص ٩٧٤ وعن المرجئة ص ٩٨٥

في ما ، وأن لا ، ثم قال : « بل ان الخطأ مسحوب حتى على القاعدة الاملائية التي في المقدمة ؛ فقد أجاز رسم (بقائي) هكذا : (بقاءي) كأنها اسم مثنى ، وهو ما لا يقول به أحد اليوم (١) . »

أما الأعجمي والعامي من اللفظ فلست أدري كيف يذكر في معجم عربي .. ولقد أصرّ الذين يريدون خدمة اللغة العربية من أصحاب المنجد على كتابة مثل : برنيطة ، برنس ، بارامون ، بَيْرمون ، بالون ، بروتستو ومثناه بروتستوان والجمع بروتستوات ، البريفة - وهي على حـــد قول المنجد - الشهادة الابتدائية العليا !! ، البزبورط والبسابورط ، البسطرما ، البسكوتي ، البسيكولوجيا ، البطّارية ، البكلة ، البخت ، البصّارة ، البطوشيل ، البكالوريا ، البكليك ، البلاستيك ، البلطة ، البلطجي ، البنجرة ، البنزين ، بنطلون ، البنك ، البورصة ، بولفار ، بوليس ، بوليصـــة ، البيجاما ، البيّاذة ، البيداغوجيا البيوة بيك (٢) .

وهذه الالفاظ كلها من باب واحد هو حرف الباء ، وأنت واجد مثلها في كل مادة من مواد هـذا المعجم اللغوي المختصر !! الذي وضع ليعلّم الطلاب وغيرهم اللغة العربية الشريفة !

وبعد ، فلا يعيب المعجم أن ينتقد إذا كان الاساس الذي قام عليه

---

(١) تقرير عن أضرار المنجد . ص : ١٠

(٢) وقالوا في تفسيره « البيك ج بكوات . وبعضهم يقول بيكات . أصله بك بالتركيــة ، ويلفظ بـه وبهوات . لقب كان يلقب به اولاد الوزراء ، والممتـــازين بين العامة ، وكل ذي نفوذ . قـــد يختصر في العسكرية بالقائمقـــام والأميرالاي . » المنجد : ٥٧ .

أساساً صحيحاً سليماً أولاً ، وإذا كان النقـد ثانياً لا يخرج به عن كونه معجماً ، ولا يجرده من الصفات التي لا يكون معجماً إلا بها ، وقد رأينا الكثيرين من العلماء واللغويين ينقدون الكتب اللغوية ، ويستدركون على بعض المعجمات القديمة كاللسان والقاموس المحيط ، ومع ذلك فقد بقي كل من هذين المعجمين ثقة يتداوله الناس ويعترف بفضله منتقدوه قبل المفيدين منه من باحثين ومتعلمين .

ولابدّ للمعجم اليوم من أن يتعاون على وضعه لجنة ذات جوانب ثقافية متعددة يصعب أن تجتمع اليوم في فرد من الناس أو اثنين ، وإلا كان في المعجم نقص واضح في الجانب الذي تنقص فيه ثقافة واضعيه كما هو الأمر بالنسبة الى نقص ثقافة المنجديين في اللغة العربية والتاريخ العربي والاسلامي

وأما القدماء من علمائنا فحسب أحدهم أنه كان موسوعة ثقافية تضيق لجنة بكاملها اليوم عن أن تحيط بثقافته . ومن ينظر في كتب التراجم يجد مصداق ما نقول من أن فلاناً من العلماء كان فقيهاً ، أديباً ، نحوياً ، متكلماً ، وأن فلاناً كان راوية للحديث اخباريا لغويا . ، بل إن كثيرين منهم تجاوزوا ذلك الى علوم أخرى كالحساب والفلك والأقاليم . وفي مؤلفات الكثيرين منهم ما يثبت هـذا التعدد أو التنوع في مجال الثقافة ، كما يثبت منزلة صاحبه في كل ضرب من ضروب ثقافته المتنوعة . ومع كل ذلك فقـد كان واضع المعجم منهم لا ينفرد برأي، وإنما ينقل عن غيره بصدق وأمانة ، ويأخذ عن المصادر الموثوقة كما رأينا في خطب معجماتهم .

والمعجم اللغوي بعد ذلك كتاب بجمع ألفاظ اللغة ويفسرها تفسيراً لغوياً ، وليس من شأنه نشر التعاليم الدينية أو المصطلحات الخاصة بعلم من العلوم ، ولذلك فهـــو يختلف عن سائر المعجمات الخاصة التي تعنى بتفسيرات غيرلغوية ، ككتب المصطلحات الفقهية والشروح الدينية . كما انه يختلف عن الكتب المعروفة باسم دوائر المعارف لانها تقوم على الشرح ووصف الاشياء على حين أن المعجم اللغوي يفسر من اللفظ جانبه اللغوي .

وقد امتزجت هذه الصفات جميعاً في المنجد فكان أقرب الى كتاب يشرح التعاليم ويصف الاشياء ويصوّرها مع حرصه على عنوانه اللغوي . وقد أدرك بعض أصحاب المعجمات القديمة ذلك فكانوا إذا استشهدوا بالقرآن الكريم أو الحديث النبوي للفظة أو لغة في لفظة استشهدوا بجزء من الآية أو الحديث ولم يقفوا عند تتمتها أو عند مافيها من غريب ..

وأما إلحاق الاعلام بالمعجم اللغوي فأمر لامسوغ له ، ومـــا علاقة التعريف بأعـــلام البشر بتفسير ألفـاظ لغـة بعينهـا ؟؟ إن للأعلام معجمات خاصة ،وأنت مع هذه المعجمات بين أمرين : إما أن تستقصي فيطول المعجم ويتضخم ، وإما أن تختصر وتختار ، وعند ذلك فلابدّ من أساس واضح عادل للاختيار . وما رأينا ذلك فيما نحن بصدده ولا عرفناه .

وعلى هذا فنحن نستطيع من خلال تصفّحنا للمنجد واطلاعنا على ما كتب عنه [1] ان نقول :

---

(١) انظر ماسبق في ص : ١٦٥ و ١٦٦

١ ـ في المنجد خطأ في اللغة ، وخطأ في النحو .
٢ ـ في المنجد تفسير لغوي لا أصل له .
٣ ـ في المنجد ألفاظ أجنبية .
٤ ـ في المنجد ألفاظ عامية .
٥ ـ في المنجد إقحام لتفسيرات لا علاقة لها باللغة .
٦ ـ في المنجد نقص في الأعلام .
٧ ـ في المنجد تشويه في التعريف بالأعلام .
٨ ـ في المنجد تشويه للتاريخ .
٩ ـ في المنجد عناية زائدة بكل ما يتصل بالمسيحية مهما صغر .
١٠ ـ في المنجد إهمال تام لكل ما يتصل بالإسلام .

ونحن نرى :

١ ـ إن خطأ اللغة يمكن أن يصحح بعرض المعجم على مجمع من مجامع اللغة ، او معارضته بمعجم من معجمات العربية الثقة .

٢ ـ إن سياسة أصحابه التي صرحوا بها في مقدماتهم من إدخال الأجنبي والعامي سياسة خاطئة لاتتلاءم مع مقومات اللغة ولا يقبلها اتجاه قومي سليم .

٣ ـ ان للأعلام معجمات خاصة تذكر فيها أسماء الأماكن والأشخاص ويعرف بها ، ولا بد من التفريق بين المعجم ودائرةالمعارف ، ولا يجوز ان تكون دائرة المعارف مصدراً للمعجم ، وإن نظرة واحدة يلقيها الباحث على معجم الأعلام للاستاذ الزركلي وملحق الاعلام للأب تونل ، كافية لبيان

الفرق البعيد بين العملين . أما المعجم اللغوي فليس من ضرورة الى ذكر العلم فيه إلا إذا كانت له صلة اشتقاقية بالمادة اللغوية .

٤ – لابد فيمن يتصدى للعمل العلمي – أياً كان اتجاهه – من أن يكون حيادياً ليحظى عمله بالقبول ويحظى هو نفسه بالتقدير .

فيا أصحاب المنجد : تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم على ألا تضعوا فيه من غير المصادر الأصيلة الموثوقة شيئاً ، ولا تنقصوا ولا تزيدوا ، ولا تشوهوا ولا تحرفوا ، ولا تبتغوا غير اللغة قصدا ، ذلك ما قامت عليه معجمات اللغة ، وذلك هو ما يجب أن تقوم عليه ، وذلك ما تُدعَوْن اليوم إليه . فمن اعتمد مصدراً غير ثقة بعد ذلك ، أو سلَّم العمل الى غير أهله ، أو شوَّه أو حرّف ، أو نقص أو زاد ، فانما إثمه على الذي فعل ، ووزره على الذي قبل . وإنما تُوفَّون أجوركم في طبعات قادمات ، يوم نقبل المعجم منجدا حقيقيا ينجدنا في اللغة ، ويكون خالصاً للغة، او يوم نقول لكم : إن منجدكم قد مات .

السخف المأثور

في أن الخطأ المشهورَ خيرٌ مِنَ الصّوابِ المهجُور

ما من خسارة تنزل بالأمة أفدح من خسارتها لما يمسك حياتها من قيم ومُثُل . وما من سم أفتك في حياة الشعوب من هـــذه الجمل الدخيلة والأفكار الخبيثة المدسوسة تصاغ في قالب المـَثَل، وتدور على كل لسان ، لا تعرف من صاغها ، ولا من أطلقها ، ولكنك تسمعها من كل إنسان ، وتبرز في كل مناسبة، وتلمس بعد ذلك أثرها السيء في المجتمع الغافل .

وأي أثر أسوأ من أن يلجم اللسان عن النصح والنقد، وهما الأمران اللذان لابدّ منهما لتستقيم حياة الراعي والرعية ، فاذا نصح أحد أو انتقد وضعاً من أوضاع المجتمع قالوا إنه (حامل السلّم بالعرض) . وإذا لحقه أذى من جراء نصحه أو نقده قالوا إنه (تدخّل فيما لا يعنيه . .) وكأن أمر الناس لا يعني أحداً من الناس !! وكأن أمتنا لم تسمع أن من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم .

وأي أثر أسوأ في المجتمع من أن يُشجع اللص والمحتال ، فاذا ظفر بغنيمته

الحرام قالوا : (حلال على الشاطر) .

وأي أثر أسوأ من أن يرى الناس البلاء وقد عمَّهم ، فلا يرفع أحد رأساً ولا صوتاً لأن (الموت مع الناس رحمة) فاذا فكر مستنير منهم برفع رأسه قالوا له : (ضع رأسك بين الرؤوس وقل يا قطّاع الروس) .

وأي زيف في الحياة وتربية على النفاق أكثر من أن يرى الناس ظالماً لايستطيعون الأخذ على يده ، ولا رفع الصوت بانكار ظلمه ، فيطأطئون له الرؤوس قائلين (اليد التي لا تقوى عليها قبّلها وادعُ عليها بالكسر) .

لقد قلبوا المثل والمفاهيم ؛ فسمّوا المخادع ذكياً ، والظالم قوياً ، ووصفوا المنافق المتقلّب بأنه جيد التدبير حسن التأتي للأمور !.. ووصفوا طيب القلب بالبلاهة ، ونظروا الى الرجل المستقيم الذي لايميل مع الهوى ولاينحرف مع الرغبة أو الرهبة على أنه انسان غـــير اجتماعي ... ورأوا في الرجل الصادق انساناً بعيداً عن الكياسة والسياسة .. وسموا الصريح وقحاً ، والوقح جريئاً ، والقائل بالحق متهّوراً ..

لقـد قلبوا حقائق الأمور فانقلبت بهم ، وغيَّروا الموازين فتغيَّرت بهم الأوضاع ، وزيّفوا المعاني التي بها يحيَون فزافت بهم الحياة .

وكان من جملة ما زيَّفوا ممـا نحن بصدده من أمر اللغة أنهم قـالوا : الخطأ الشائع المشهور خير من الصواب المهجور .

وهي فرية عجيبة لا ندري أول من قالها ، ولكنا نحسبه خبيثاً أخطأ فنبِّه على الصواب ، فتفتـّق خبثه عن هذا العذر القبيـح ، وهو لو أخطأ

في تقدير حق مادي من حقوقـــه ثم تبين وجه الصواب للزمه وألح في التزامه متذرعاً بأن الرجوع الى الحق فضيلة ، وأن العودة إلى الحق خير من التمادي في الباطل .. فهلا كانت العودة الى الصواب في اللغة خيراً من التمادي في الجهل .

إن لكل لغة قوانينها واحكامها في ألفاظها وتراكيبها ، فمن حاد عنها فهو مخطىء ؛ أفإن أخطأ متحدث او متحدثون ثم ظهر الحق وتبين الصواب أفيترك الحق الذي ظهر للباطل الذي شاع وانتشر ؟؟

أرأيت لو أن أحداً من الناس مات عن ولده ، والشائع بين الناس انه لا ولد له ، أكان ابنـه يتخلى عن نصيبه الحق من إرث أبيه للباطل الشائع بين الناس ؟؟ أم أن الإرث مال ، وأما اللغة فأمرها هيّن ..

ألم أقل لك إن الناس قد قلبوا المفاهيم حتى ان احدهم يتمسك بما ورث عن أب واحد ويتخلى عما ورث من أمة بكاملها !!؟

ولقد أدرك العرب عظمة ما توارثوا فكانت للغة عندهم منزلة عرفها القاصي والداني ، وكان لنقلها عندهم شروط ، وللاحتجاج بهـــا شروط ، ولراويتها صفات ، وكانوا يتحرجون ويدققون صيانة منهم لحرمة اللغة ، ونأياً بألسنتهم عن الخطأ بها . ولقد رأيناهم يتساءلون فيما بينهم عن كثير من مسائل اللغة ، ويسافرون وراء حقائقها ، فأين هم من مثقفينا الذين يأتي الصواب إليهم دون أن يسافروا وراءه ، فاذا هم يخجلون من الرجوع عن الجهل

أو الخطأ ، وإذا شعارهم أن الخطأ الشائع خير من الصواب المهجور !

على أن انتشار اللحن والخطأ ليس بدعاً ولا جديداً ، ولكن الجديد المبتكر هو معاندة الحق والإصرار على الخطأ . وأما انتشار الخطأ فكانوا يحتاطون له ، ويحللون أسبابه ، ويضعون له علاجه ؛ لقد كان وضع علم النحو وقواعد اللغة بسبب من انتشار اللحن وشيوع الخطأ . بل تجاوز العلماء وضع القواعد والأحكام الى تصحيح ألفاظ المتكلمين ؛ وذلك أنهم رأوا مخالطة الخاصة والمثقفين والمتعلمين للعامّة تؤثر في لغتهم ، وتصيب بعض ألفاظها بالتصحيف والتحريف والخطأ ، فبادروا إلى لغة العامة يؤلفون في بيان لحنها ويصححون ألفاظها ، وكان من أوائل المؤلفين في لحن العامة الكسائي المتوفى سنة ١٩٢ هـ وكان ابن السكّيت المتوفى سنة ٢٤٤ هـ ممن نبّه على كثير مما تغلط به العامة في كتابه « إصلاح المنطق » وتبعه السجستاني المتوفى سنة ٢٤٨ هـ فوضع كتابه « ما يلحن فيه العامة » . وكذلك نبّه ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧١ هـ في كتابه « أدب الكاتب » على بعض ما تخطىء العامة فيه .

وأما لحن الخاصة فكانوا أول أمرهم أقلّ احتياجاً إليه ، ثم ظهرت الحاجة فبادروا الى التأليف فيه على نحو « درة الغوّاص في أوهام الخواص » للحريري[1] ٥١٦ هـ .

---

(١) انظر حديث الرافعي عما ألفوا في لحن العامة ولحن الخاصة في تاريخ آداب العرب ١ : ٢٦٢ وانظر المعجم العربي للدكتور حسين نصار ١ :٩٦-١١٠ .

وتتابع اهتمام العلماء بعد ذلك في تصحيح الخطأ الشائع ، فألّف فيه ابن كمال باشا (٩٤٠ هـ) كتابه « التنبيه على غلط الجاهل والنبيه » .

ثم ألّف عدد من المحدثين في الموضوع نفسه .

فكتب أسعد داغر (١٣٥٣ هـ و ١٩٣٥ م) « تذكرة الكاتب »

وكتب معروف الرصافي (١٣٦٤ هـ ١٩٤٥ م) « رفع المجنة » .

وكتب ابراهيم المنذر (١٣٦٩ هـ ١٩٥٠ م) « المنذر في نقد أغلاط الكتاب » .

وكتب سليم الجندي (١٩٥٥ م) « إصلاح الفاسد من لغة الجرائد » وكتب الشيخ مصطفى الغلاييني « نظرات في اللغة والأدب » وكتب صلاح الدين الزعبلاوي « أخطاؤنا في الصحف والدواوين[1] » .

وغير خاف أن كلًا من هؤلاء المؤلفين والكتّاب كان يكتب عما وقع تحت يده من خطأ أهل عصره ، ولذلك فان كلًا من كتبهم يعطي صورة عن خطأ العصر الذي عاش فيه صاحبه ، وهي في مجموعها تعطي صورة عن تطور اللغة وتطور اللحن فيها .

وإن المعارضة بينها تدل على أن اللغة الدارجة اليوم أقرب الى العربية السليمة من اللغة التي كانت دارجة منذ قرن أو أكثر . وأن لغة الناس الدارجة ـ هذه التي يريد بعضهم أن تسود وأن يكون لها أدب وقواعد !! ـ لغة سريعة التطور لا تعرف الثبات ... بل إن نظرة واحدة الى كتابين من هذه الكتب بينها قرن واحد تدلك على أن ما كان يخطىء به بعض المثقفين

(١) وآخر ما صدر في الموضوع كتاب « الأخطاء السائرة في اللغة العربية » للأستاذين خالد قوطرش وعبد اللطيف الأرناؤوط .

من قبل يعرف وجه الصواب فيه اليوم أكثر العامة .

ولابدَّ من الاشارة قبل البدء بعرض نماذج من الخطأ الدارج اليوم الى أن كتاب الاستاذ الزعبلاوي يمتاز من بين كتب المحدثين بجودة أسلوبه وحسن جمعه وتحقق مؤلفه ـ وتحريه الصواب ، وعنايته بلغة الدواوين .

وإن التأليف في هذا الموضوع لا بدَّ فيه من الاستمرار ما دامت لكل عصر أغلاطه ، فقد يصحح الناس اليوم ما أخطأ فيه أسلافهم ، وقد يخطىء أبناؤهم فيما يقولونه اليوم صواباً . ونحن نعرض فيما يلي أمثلة من الخطأ الشائع ، ونذكر معها وجه الصواب فيها ، لا على أنها معجم يستوعب أو يستقصي ، ولكنه نمط من التنبيه على الخطأ المشهور وإحياء الصواب المهجور .



قل ولا تقل

قل :	لا تقل :
أثّر في	**أثّر على**
أحتاج إلى أو يُعْوِزني	**يلزمني**
(عازني الشيء : لم أجده أعوزه الدهر : أحوجه اعوزه الشيء : احتاج إليه)	(لزمني أي بقي ملازماً لي ، وليس فيها معنى الاحتياج .)
أخطأ الصواب	**أخطأ عن الصواب**
أخفق	**فشل**
	(ليست بمعنى : لم ينجح وإنما الفشل : الضعف والجبن . فشل فهو فشل)
أدمن الشرب	**أدمن على الشرب**
إرْباً إرْباً	**إرَبا إرَبا**
(الإرب : العضو)	
الأزْمة أي الشدّة	**الأزمّة** (الأزمة : ج زمام)
استبدلت الخير بالشر	**استبدلت بالخير شرا**
(إذا أردت أنك أخذت جانب الخير وتركت الشر)	(لاحظ أن الافصح دخول الباء على الذي تركته)
اطّلع	**اضطلع**
	(اضطلع بالامر : قام بأعبائه وليست من الاطلاع بمعنى المعرفة)

أعييت (أي تعبت)	عييت (اي انقطعت حيلتي)
اقتصد في الأمر	اقتصد من المال
(أي : توسط)	(اقتصد ليست بمعنى وفر . ثم هي فعل لازم لا يتعدى)
أمعن في الأمر	تمعَّن
أمعنت في النظر	أمعنت النظر
أودية	وديان
بَيْطار	بِيطار
تجرِبة : ج تجارِب	تجرُبة : ج تجارُب
تحرَّى الأمر	تحرَّى عن الأمر
تعوَّد الأمر	تعوَّد على الأمر
وعوَّدته الأمر	وعوَّدته عليه
توفَّر على الأمر	توافر
(أي صرف همه له)	(توافر أي : تكاثر)
جُمادى الأولى	جَماد الأول
جُمادى الآخرة	جَماد الثاني
حار	احتار
حاز الدرجة	حاز على الدرجة
حَلْقة ج حلَقات	حَلَقة (الحلقة بفتح اللام جمع حالق)

الحَيْرة	الحِيْرة (الحيرة : اسم بلد)
جنوبي البلاد (ومثلها : شمالي البلاد)	جنوب البلاد (نقول : تمتـــد سورية من جنوبي البلاد التركية الى شمالي الجزيرة العربية . لان الجنوب والشمال اسمان لريحين معروفتين)
الخِصْب	الخصوبة
خضع ، وأذعن	رضخ (رضخ الحجارة : كسرها . ورضخ له : أعطاه ورضخ به الارض : جلده بهـــا . وتراضخوا : تراموا . ومنه المرضاخ : الحجر الذي يرضخ به النوى)
خفي عليه الأمر ، ولا يخفى عليكم	لا يخفاكم
دمَعت عيني	دمِعت
دهِمه الأمر	داهمه
راجح (عقل راجح)	رجيح
عاقه	أعاقه
ُعرض الحائط (بمعنى وسطه)	َعرض الحائط (العرض بالفتح ، والطول من الابعاد . وأما العرض بالضم فبمعنى الوسط) .

عِيان	عَيان (يقال : شاهد عيان ، أي شاهد رأى بعينه) .
الغَيْرة (ويقال للرجل والمرأة : غيور والجمع : غير بضم الغين والياء)	الغِيْرة
غير المعقول	الغير معقول
فسح له المجال	أفسح (أفسح فعل لازم ، يقال : أفسح المكان إذا اتسع) .
قارس (البرد قارس)	قارص (يقال للبن قارص إذا كان حامضاً)
القَبول (مصدر قبل)	القُبول
قصر الامر على كذا فالأمر مقصور	قاصر
القُشَعْرِيرة (على وزن : الطمأنينة)	القَشْعَرِيرة
كابد	تكبَّد
الناس كافة	كافة الناس
كلفته القيام	كلفته بالقيام
رؤيتك	رؤياك (الرؤيا : الحلم ، وليست من الرؤية بمعنى النظر) .
زهور وأزهار (جمع زهرة)	زهور (يقال : زهر السراج زهوراً إذا أشرق وتلألأ ، كازدهر .)

سيّاح	سوّاح
الشباب (جمع شاب)	الشبيبة (الشبيبة : من الشباب والحداثة وليست جمعاً لشاب) .
شائق	شيّق
الشعائر (جمع شعيرة . فشعائر الحج : معالمه التي ندب الله الناس اليها . ومثلها : المناسك) .	الطقوس
صبيح	صبوح
صحا السكران	
صحت السماء	صحت السماء
صرف همّه لكذا قصر جهوده على	كرّس
صُندوق	صَندوق
ضحّى بنفسه	ضحّى نفسَه
طَوال السنة	طِوال السنة (طوال بالكسر: جمع طويل)
مُصغية	صاغية
أصغى : سمع فهو مصغ . والاذن مصغية وأما الصاغية فهي المائلة	(صغا ، يصفو ويصغي صُغواً وصُغياً : مال) صغت النجوم : مالت للغروب صاغية الرجل : الذين يميلون اليه - وفي القرآن « فقد صغت قلوبكما » - وفيه « ولتصغى اليه أفئدة الذين لايؤمنون بالآخرة » .

لِثة (لما حول الأسنان)	لَثّة
مُبغَض	مبغوض
المتنزه	المنتزه
المتوفّى (للميت)	المتوفي
المتَوفّاة	المتوفّية
مديرون	مدراء
المصادقة	الصّدقة
مَصون	مصان
المَصيف	المَصْيَف
المُفتون	المفاتي
ممتلىء ، ملآن	مليء (المليء : الغني)
هذا الميناء	هذه الميناء (لأنه مذكر ، من ونى)
نعلمكم	نحيطكم علماً
نشد الشيءَ	أنشده (أنشد أي غنى وليست بمعنى طلب).
النضج	النضوج
النَّقه (نقه من المرض نقهاً)	النقاهة (يقال نقه العلم نقاهة أي :فهمه)
النَّيْل (نلت الشيء : حصلت عليه)	النَّوال (النوال : العطاء. نلته أعطيته)
وارث	وريث
وافق المجلس	صادق على، وصدّق على (لان صادق من الصداقة ، وصدق ضد كذب).
وحده	لوحده

الوَحدة	الوِحدة
وَفيات	وِفيّات
وقّع في الكتاب	
وقّع على المرسوم	وقّع المرسوم
ولا سيّما	سيّما ، سيَما
	(السي : المثل . فقولي : أحب الفواكه ولا سيا التفاح ، يعني : ولا مثل حبي للتفاح فلا معنى اذاً لاستعمال (ولاسيا) على غير هذه الصورة) .
لايساوي شيئاً	لا يوازي شيئاً
	(الموازاة : المحاذاة)
يمسك رمقه	يسد رمقه
اليمين القانونية	اليمين القانوني
ينعى	ينعي .
ينعى فلاناً	ينعى وفاة فلان

وهناك خطأ من نوع آخر ، لايتصل بلفظ الكلمة أو تعديتها بحرف معيَّن ، وإنما يتناول استعمال الكلمة في تركيب معين ، أو يتناول استعمال تركيب لغوي معيّن ، فمن ذلك مثلًا قولهم :

اتخذته كصديق	**والصواب : اتخذته صديقاً**
الأعجب من ذلك	**والصواب : اعجب من ذلك ، أو : الاعجب**
	(ومثلها : الأكثر والانكى (أي لابد من حذف (الـ) أو (من) لأن أفعل التفضيل المحلى بـ (الـ) لا يجوز فيه ذكر (من) مع المفضل عليه) .
تحادث فلان مع فلان	**والصواب : تحادث فلان وفلان**
	(ومثلها : تصادم وتقاتل وتقابل ؛ لأن المفاعلة تستعمل معها (الواو) لا (مع)
لايهتم سوى بالعلم	**والصواب : لايهتم بسوى العلم**
يحبون بعضهم	**والصواب : يحب بعضهم بعضا**

وكثيراً ما يخطىء الناس في استعمال كلمتي (طالما) و (كلما) ؛ أما طالما فليست للشرط ، ولا يجوز أن تقول : لن أحضر طالما أنني مريض ، او طالما زيد مسافر فلن أراه . والصواب في مثل ذلك استعمال (مادام) ؛ تقول : لن احضر مادمت مريضاً ، ولن ارى زيداً ما دام مسافراً . اما (طالما) فهي بمعنى طال وكثر ، تقول :

طالما حدّثتك عن الأمر ، أي : طال حديثي ... ، وطالما قلت . . . أي طال أو كثر قولي . . . وأما (كلما) فلا يجوز تكرارها في الجملة ، أي لا يصح أن تقول : كلما زرته كلما أكرمني . والصواب كلما زرته اكرمني .

ومن الخطأ الشائع بين الطلاب خاصة إدخال (ان) في خبر أفعال الشروع ؛ يقولون : جعل أن يكتب ، وأخذ أن يفعل ، والصواب جعل يكتب ، وأخذ يفعل .

ويقولون : وإلاّ لفعل ذلك ، والصواب ترك اللام في جواب (إن) كتركها في جواب (إذا) ، وإنما تدخل في جواب (لو) و (لولا).

ويخطئون في استعمال أساليب النفي والاستفهام والتأكيد ، فيقولون في النفي مثلًا : سوف لن أفعل ، وهو خطأ لأن (لن) لنفي المستقبل ، فلا حاجة إلى (سوف) التي هي أيضاً للدلالة على المستقبل .

ويقولون : لا يجب أن تفعل ، وهم يريدون وجوب عدم الفعل ، والصواب : يجب ألاّ تفعل . وأما قولهم (لا يجب) فمعناه أن الفعل جائز وليس واجباً .

ويقولون : لا أعلم فيما إذا جاء أولا . . . والصواب : لا أعلم أجاء أم لا .

ويقولون في الاستفهام : اسأله إذا كان يقبل ، والصواب : اسأله هل يقبل ...

وأما التأكيد فيقولون فيه : قرأت نفس الكتاب ، فيضعون المؤكد قبل المؤكَّد . والصواب العكس وهو قولنا : قرأت الكتاب نفسه .

ومن الأساليب المستحدثة المستهجنة في التأكيد قولهم : الكلمة إياها ، والرجل إياه عوضاً عن الصواب الذي هو : الكلمة نفسها أو عينها ، والرجل نفسه أو عينه .

ويخطئون في إلحاق الصفة بالموصوف فيقولون : مدير عام المكتبات والصواب : المدير العام للمكتبات أو : مدير المكتبات العام. ومثل ذلك ذكرهم للصفة إذا كانت كوناً عاماً كقولهم : إلى بيتنا الكائن في حي كذا. والصواب: حذف (الكائن) والاكتفاء بقولنا : بيتنا في حي كذا . ومثله قول بعضهم : يوجد بين الناس كثيرون يفضلون كذا ، والصواب : حذف كلمة (يوجد) .

وآخر ما ننبه عليه في هـذه النماذج أنهم يضعون تاء التأنيث في صفات يستوي فيها المذكر والمؤنث ولا يصح أن تدخل عليها التاء إلا للمبالغة فهم يقولون : بقرة حلوبة ، والصواب : حلوب . ومثلها: امرأة ودود ، وولود ، وكسوب ، وتوبة نصوح ؛ لأن وزن « فعول » إذا كان بمعنى « فاعل » يستوي فيه المذكر والمؤنث ، وكذلك وزن « فعيل » إذا كان بمعنى مفعول ، فنقول : امرأة حبيب ، وأسير ، وقتيل ، وعقيم ، وعين كحيل ، وكف خصيب . وكذلك يستوي

المذكر والمؤنث في وزن (مِفعال) فنقول ، رجل مكسال وامرأة مكسال ، رجل مضحاك وامرأة مضحاك .

وأما الخطأ في الكتابة فكثير ، ومن أكثره شيوعاً بين الناس كتابة الاسماء المنتهية بالتاء المربوطة بتاء مفتوحة ككتابتهم (بهجت ، جودت ، رأفت ، شوكت ، عصمت) بالتاء المفتوحة وهي كلها بالتاء المربوطة لأنها من البهجة والجَوْدة والرأفة والشوكة (أي القوة) والعصمة ، وعلى العكس من ذلك يكتبون (رفاة وثقاة) بالتاء المربوطة ، وصوابها : بالتاء المفتوحة . والرفات : الحطام . والثقات جمع ثقة .

---

(١) الشورى ٤٢ : ١٧

(٢) النبأ ٧٨ : ٢١

محتوى الكتاب

ملاحظة : استغنينا عن ذكر المصادر بما ذكرناه منها في حواشي الكتاب

آثار المؤلف

١ - الإيضاح في علل النحو للزَجّاجي (تحقيق) القاهرة ١٩٥٩

٢ الزجاجي ، حياته وآثاره ومذهبه النحوي دمشق ١٩٦٠

٣ - الرمّاني النحوي في ضوء شرحه لكتاب سيبويه دمشق ١٩٦٣

٤ - مغني اللبيب لابن هشام (تحقيق بالاشتراك)الطبعة الأولى دمشق ١٩٦٥

الطبعة الثانية بيروت ١٩٦٩

٥ - النحو العربي :

بحث في نشأة النحو وتاريخ العلّة النحوية دمشق ١٩٦٥

٦ - النصوص اللغوية :

نصوص مختارة من كتابي الخصائص لابن جني والمزهر السيوطي بيروت ١٩٦٧

٧ - الموجز في تاريخ البلاغة بيروت ١٩٦٨

٨ - كتاب اللامات للزجاجي (تحقيق) مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٦٩

٩ - مجتمع الهمذاني :

بحث يحلّل المقامات ويستشف من ورائها صورة

المجتمع الذي أنشئت فيه دمشق ١٩٧٠

١٠ - نحو وعي لغوي دمشق ١٩٧٠